الأعمال الموجزة

جمال الدين الأفغاني

عبد الرحمن الرافعي



دار المعارف

عبد الرحمن الرافعي

الأعمال الموجزة

جمال الدين الأفغاني

باعث نهضة الشرق

١٨٣٨ - ١٨٩٧



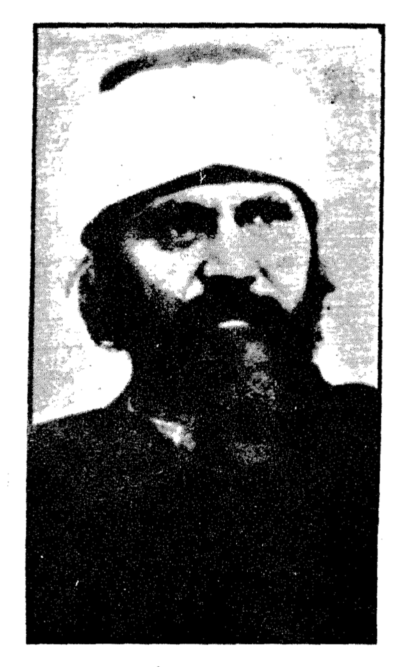
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع



عبد الرحمن الرافعى

ولد فى ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ – وتوفى فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦



جمال الدين الأفغانى

تقديم الكتاب

ظهرت الطبعة الأولى من ترجمة شخصية باعث نهضة الشرق جمال الدين الأفغانى سنة ١٩٦١. وتخرج دار المعارف بفضل رجالها المسئولين الطبعة الثانية تحوى فصولاً سبعة – تبدأ بحديث أستاذنا عبد الرحمن الرافعى المؤرخ الوطنى الكبير لتاريخ مصر القومى – عن نشأة الأفغانى والعصر الذى ظهر فيه، ثم عمله فى مصر، وصلته بالثورة العرابية، ثم نشاط الأفغانى فى أوروبا، ولم يفت الرافعى الإشارة إلى نماذج من مقالات الأفغانى ونشاطه فى سائر بلدان العالم ويختم الرافعى الفصل السابع من الكتاب بالحديث عن شخصية الأفغانى من جميع جوانب حياته وأفكاره السياسية والاجتماعية وآرائه الدينية ومواقفه إزاء الاستعمار فى مصر إلى غير ذلك مما سجله الرافعى فى أمانة وصدق ودقة، شأن ما خطه قلمه فى سائر مؤلفاته التاريخية والوطنية والأدبية.

فى نعيم الجنات مقام الرافعى جزاء ما قدمه لبلده مصر. أحاطها الله دائما بعنايته ورعايته سائرةً فى طريق التقدم والنجاح

المستشار

حلمى السباعى شاهين

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية من كتاب المغفور له والدنا عن جمال الدين الأفغانى تطابق تمامًا الطبعة الأولى التى ظهرت سنة ١٩٦١ – ولا شك أن جهد دار المعارف بأعضائها جميعا – كان له أثره فى ظهور الطبعة الثانية التى هى الآن فى متناول القارئ كى يقف على حياة رجل وطنى فى جميع أدوارها.

ولله الحمد

كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعى

مقدمة

تمر السنون وتتعاقب الأيام. وذكرى جمال الدين الأفغانى خالدة تتجدد فى النفوس كباعث نهضة الشرق.

إذا ذكر الزعماء والمصلحون فى الشرق كان هو رائدهم وكان فى طليعتهم، نهض والناس نيام، فكانت دعوته أول نداء دوى فى الآفاق، أهاب بالأمم الشرقية أن تتحد وتتعاون، وتحارب الاستعمار وتقاومه، وتحذر أساليبه ومكايده، وأن تتخلص من النظم الاستبدادية الداخلية التى درج عليها الملوك والرؤساء، وتحرر العقول والعقائد من نزعات الجمود والركود، وتنطلق إلى آفاق الحرية والعلم، واليقظة والرقى، فكانت دعوته التى عاش عليها ومات من أجلها بداية النهضات التى شملت أقطارا عديدة جابها، وغرس فيها أفكاره ومبادئه، وكانت مبعث الحركات القومية التى ظهرت فى أرجاء الشرق حينا بعد حين، خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

ظل الشرق قرونًا وأجيالاً رازحًا تحت نير الجمود الفكرى، والتأخر العلمى، والاستعباد السياسى، وبقى فى سبات عميق. إلى أن قيض الله له الحكيم الأفغانى «جمال الدين» فنفخ فيه روح اليقظة والحياة، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك، وبالعقول أن تستيقظ، وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية، فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة.

وإذا أردنا أن نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين، ومدى الرسالة التى أداها، فلنتذكر أنه كان فى حياته مصلحًا دينيًّا، وفيلسوفًا حكيمًا، وزعيمًا سياسيًّا، فجمع بين الزعامات الروحية، والفكرية، والسياسية، واضطلع بها معا، فأدى من الناحية الدينية مهمة الإصلاح والتجديد التى أدى مثلها مارتان لوثير للمسيحية، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته، وترجع إلى مبادئه

الصحيحة، وفطرته الأولى، وتطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت إلى تأخر المسلمين.

ومن الناحية الفكرية، أدى المهمة التى قام بها فى أوروبا فلاسفة الفكر، أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهما، فعمل على إنارة البصائر، وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق، وتحرير العقول من قيود الجمود والتفكير.

ومن الوجهة السياسية، استنهض الهمم، واستثار فى النفوس روح العزة والكرامة، والتطلع إلى الحرية، وغرس بذور الحركات الوطنية فى مختلف البلاد الشرقية، ومحاربة الاستعمار، وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب، كواشنطون، وجاريبلدى، ومازينى، وكوشت وغيرهم.

فالذى يجمع بين هذه المهام الجليلة، ويضطلع بها معًا، فى عهد اشتد فيه ظلام الجهالة، وتفرقت الكلمة، وعز النصير، وتشعبت الأهواء، يجب أن يتسامى فى قوة النفس والفكر والوجدان، إلى مراتب العبقرية.

وهذا الكتاب يؤرخ لهذه الشخصية الفذة، ويسجل مراحل كفاح الرائد الأول لنهضة الشرق.

مارس سنة ١٩٦١

عبد الرحمن الرافعى

الفصل الأول

نشأته والعصر الذى ظهر فيه

ولد جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هجرية)، فى «سعد آباد» إحدى القرى التابعة لخطة (كنر) من أعمال (كابل) عاصمة الأفغان، ووالده السيد صفتر من سادات (كنر) الحسينية، ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور، ويرتقى إلى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، فالمترجم من السلالة النبوية الطاهرة، ويجرى فى عروقه الدم العربى الأصيل، ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى.

وقد زعم بعض المتشككين أو المغرضين أن جمال الدين إيرانى لا أفغانى، وهو زعم مختلق يراد منه التشكيك فى أفغانية السيد العظيم، ويدحضه ما اتفق عليه رواة من معاصريه بأنه أفغانى الموطن وتسميته طيلة حياته «جمال الدين الأفغانى» وما قاله رحمه الله عن نسبه، فقد قرر أنه أفغانى صميم، قال مرة «لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولمت شعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفتنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى ترابها»، وقال مرة أخرى «إنى اضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض».

هذا إلى ما عرفه أقرب الناس إليه مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والأمير شكيب أرسلان، والشيخ عبد القادر المغربى وما سمعوه منه من أنه أفغانى بحت عربى بالسلالة النبوية التى ينتسب إليها.

ولعل هذا الشك الذى أثاره بعض الإيرانيين راجع إلى التفاخر بالعظماء والتنازع بين الناس على نسبته إليهم.

ولأسرة جمال الدين منزلة عالية فى بلاد الأفغان، لنسبها الشريف، ولمقامها

الاجتماعى والسياسى، إذ كانت لها الإمارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية، تستقل بالحكم فيه، إلى أن نزع الإمارة منها «دوست محمد خان» أمير الأفغان وقتئذ، وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة (كابل)، وانتقل المترجم بانتقال أبيه إليها، وهو بعد فى الثامنة من عمره، فعنى أبوه بتربيته وتعليمه، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء فى بلاده.

وكانت مخايل الذكاء، وقوة الفطرة، وتوقد القريحة تبدو عليه منذ صباه، فتعلم اللغة العربية، والأفغانية، والفارسية، وتلقى علوم الدين، والتاريخ، والمنطق، والفلسفة، والرياضيات، فاستوفى حظه من هذه العلوم، على أيدى أساتذة من أهل تلك البلاد، على الطريقة المألوفة فى الكتب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره.

ثم سافر إلى الهند، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية، فنضج فكره، واتسعت مداركه، وكان بطبعه ميالاً إلى الرحلات، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات، فعرض له وهو فى الهند أن يؤدى فريضة الحج، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة يتنقل فى البلاد، ويتعرف أحوالها وعادات أهلها، حتى وافى مكة المكرمة، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م)، وأدى الفريضة.

بدء حياته العملية

ثم عاد إلى بلاد الأفغان، وانتظم فى خدمة الحكومة على عهد الأمير (دوست محمد خان) المتقدم ذكره، وكان أول عمل له مرافقته إياه فى حملة حربية جردها لفتح (هراة)، إحدى مدن الأفغان، وليس يخفى أن النشأة الحربية تعود صاحبها الشجاعة، واقتحام المخاطر، ومن هنا تبدو صفة من الصفات العالية، التى امتاز بها جمال الدين، وهى الشجاعة، فإن من يخوض غمار القتال فى بدء حياته تألف نفسه الجرأة والإقدام، وخاصة إذا كان بفطرته شجاعًا.

ففى نشأة المترجم الأولى، وفى الدور الأول من حياته، تستطيع أن تتعرف

أخلاقه، والعناصر التى تكونت منها شخصيته، فقد نشأ كما رأيت من بيت مجيد، ازدان بشرف النسب، واعتز بالإمارة، والسيادة، والحكم، زمنا ما، وتربى فى مهاد العز، فى كنف أبيه ورعايته فكان للوراثة والنشأة الأولى، أثرهما فيما طبع عليه من عزة النفس، التى كانت من أخص صفاته، ولازمته طول حياته، وكان للحرب التى خاضها أثرها أيضا فيما اكتسبه من الأخلاق الحربية.

فالوراثة، والنشأة، والتربية، والمرحلة الأولى فى الحياة العملية، ترسم لنا جانبًا من شخصية جمال الدين الأفغانى.

سار المترجم إذن فى جيش «دوست محمد خان» لفتح (هراة)، ولازمه مدة الحصار، إلى أن توفى الأمير، وفتحت المدينة بعد حصار طويل، وتقلد الإمارة من بعده ولى عهده (شير على خان) سنة ١٨٦٤ م (١٢٨٠ هـ).

ثم وقع الخلف بين الأمير الجديد وإخوته، إذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم، فانضم السيد جمال الدين إلى «محمد أعظم» أحد الإخوة الثلاثة، لما توسمه فيه من الخير، واستعرت نار الحرب الداخلية، فكانت الغلبة لمحمد أعظم، وانتهت إليه امارة الأفغان، فعظمت منزلة المترجم عنده، وأحله محل الوزير الأول، وكاد بحسن تدبيره يستتب الأمر للأمير، ولكن الحرب الداخلية، ما لبثت أن تجددت، إذ كان (شير على) لا يفتأ يسعى لاسترجاع سلطته، وكان الإنجليز يعضدونه بأموالهم ودساتسهم، فأيدوه وناصروه، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم، وأغدق (شير على) الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير محمد أعظم «فبيعت أمانات ونقضت عهود، وجددت خيانات» كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم، وغلبة شير على، وخلص له الملك.

بقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسه الأمير بسوء؛ «احترامًا لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوى» وهنا أيضا تبدو لك مكانة المترجم، ومنزلته بين قومه، وهو بعد فى المرحلة الأولى من حياته العامة، ويتجلى استعداده للاضطلاع بعظائم المهام، والتطلع إلى جلائل الأعمال، فهو يناصر أميرًا يتوسم فيه الخير، ويعمل على تثبيته فى الإمارة، ويشيد دولة يكون له فيها

مقام الوزير ارول، ثم لا تلبث أعاصير السياسة والدسائس الإنجليزية أن تعصف بالعرش الذى أقامه، فيدال من أميره، ويغلب على أمره، ويلوذ بإيران لكى لا يقع فى قبضة عدوه، ثم يموت بها، أما المترجم فيبقى فى عاصمة الإمارة، ولا يهاب بطش الأمير المنتصر، ولا يتملقه أو يسعى إلى نيل رضاه، ولا ينقلب على عقبيه، كما يفعل الكثيرون من طلاب المنافع، بل بقى عظيماً فى محنته، ثابتاً فى هزيمته، وتلك لعمرى ظواهر عظمة النفس، ورباطة الجأش، وقوة الجنان.

وهذه المرحلة كان لها أثرها فى الاتجاه السياسى للسيد جمال الدين، فقد رأيت ما بذلته السياسة الإنجليزية لتفريق الكلمة، ودس الدسائس فى بلاد الأفغان، وإشعال نار الفتن الداخلية بها، واصطناعها الأولياء من بين أمرائها، ولامراء فى أن هذه الأحداث قد كشفت للمترجم عن مطامع الإنجليز، وأساليبهم فى الدس والتفريق، وغرست فى فؤاده روح العداء للسياسة البريطانية خاصة، والمطامع الاستعمارية الأوروبية عامة، وقد لازمه هذا الكره طول حياته، وكان له مبدأ راسخاً يصدر عنه فى أعماله وآرائه وحركاته السياسية.

رحيله إلى الهند

لم ينفك الأمير (شير على) يدبر المكايد للسيد جمال الدين، ويحتال للغدر به، فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان، ليجد جواً صالحاً للعمل، فاستأذنه فى الحج، فأذن له، فسار إلى الهند سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٥ هـ)، وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار، لما عرف عنه من العلم والحكمة، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه، ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية عداؤه لسياستها، وما يحدثه مجيئه إلى الهند من إثارة روح الهياج فى النفوس، وخاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن على الرغم من إخماد ثورة سنة ١٨٥٧، فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقته الحكومة بالحفاوة والإكرام، ولكنها لم تسمح له بطول الإقامة فى بلادها، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون إليه، يقتبسون من نور علمه وحكمته، يستمعون إلى أحاديثه وما فيها من غذاء للعقل والروح، والحث على الأنفة وعزة

النفس، فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم، ولم تأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم من مريديه وقصاده، إلا على عين من رجالها، فلم يقم هناك طويلاً، ثم أنزلته الحكومة إحدى سفنها فأقلته إلى السويس.

مجيئه مصر لأول مرة

جاء مصر لأول مرة أوائل سنة ١٨٧٠ م (أواخر سنة ١٢٨٦ هـ)، ولم يكن يقصد طول الإقامة بها، لأنه إنما جاء ووجهته الحجاز، فما أن سمع الناس بمقدمه حتى اتجهت إليه أنظار النابهين من أهل العلم، وتردد هو على الأزهر، واتصل به كثير من الطلبة، فآنسوا فيه روحًا تفيض معرفة وحكمة، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية، والفلسفية، والكلامية، وقرأ لهم شرح (الإظهار)[١] في البيت الذى نزل به بخان الخليلى، وأقام بمصر أربعين يوما، ثم تحول عزمه عن الحجاز، وسافر إلى الآستانة (استنبول).

قال الشيخ محمد عبده عن تتلمذه لجمال الدين: «وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس إلى التلقى عنه كذلك، وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصميمة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة، فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش[٢] فكان يقول لى: إن الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة، فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه، إلا ما يسميه بعض الناس علمًا وليس

(١) متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه البركوى.

(٢) خال والد الأستاذ الإمام وكان يدارسه القرآن والعلم.

فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلهما الإضرار بالناس»[١].

العصر الذى ظهر فيه

أخذ النضج السياسى لجمال الدين الأفغانى يتكون حوالى منتصف القرن التاسع عشر، وكان لحالة الشرق وقتئذ أثرها فى هذا التكوين، فالاستعمار الأوروبى فى عنفوانه وجبروته، والأمم الشرقية إما خاضعة لهذا الاستعمار أو كانت هدفه ومقصده، ففرنسا تحتل الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وترنو ببصرها إلى البلدان العربية المجاورة.

وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تغزو أفريقية، كانت بريطانيا تعمل على أن تطأ أقدامها جنوب جزيرة العرب فاحتلت (عدن) سنة ١٨٣٩، ثم أخذت تبسط نفوذها وشرورها على مر السنين فى المناطق القريبة منها والبعيدة عنها بحيث لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى مدت شراكها إلى الكثير من الأصقاع الجنوبية من شبه الجزيرة العربية.

وكانت تحتل الهند وتضطهد الأهلين فيها، وقد ثاروا عليها سنة ١٨٥٧ للتحرر من استعمارها، ولكنها أخمدت ثورتهم بالحديد والنار سنة ١٨٥٩.

وكانت تدبر المكايد لبلاد الأفغان – موطن جمال الدين – وتعمل على غزوها وضمها إلى مستعمراتها وباءت بالفشل المرة تلو الأخرى، ولكنها كانت ماضية فى تحقيق أطماعها واصطناع الأعوان والعملاء فيها.

وهولنده تحتل معظم جزائر الهند الشرقية (أندونيسيا) وتبسط على أهلها سلطانها الغاشم.

ومصر تكتنفها المطامع الاستعمارية وتلاحقها، فمنذ أن أخفقت بريطانيا فى حملة فريزر عليها سنة ١٨٠٧ فى مطلع القرن التاسع عشر وفشلت وقتئذ فى

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٥.

احتلالها، أخذت تترقب الفرص لتعاود تحقيق أطماعها الاستعمارية فيها، وتنافست هي وفرنسا في بسط نفوذها السياسي والاقتصادي عليها وانتزعت فرنسا من مصر سنة ١٨٥٤ امتياز حفر قناة السويس، فكان ذلك غزواً اقتصادياً لها، واشتد التنافس بينها وبين بريطانيا على التدخل في شئونها.

فالعصر الذي ظهر فيه جمال الدين كان عصر طغيان الإستعمار الأوروبي في بلاد الشرق عامة، وكان من شأنه أن يؤجج في النفوس الحساسة مشاعر بغضه وكراهيته والسخط على المستعمرين والدعوة إلى محاربتهم ومقاومتهم.

وكانت الحالة الداخلية لبلاد الشرق بالغة منتهى السوء، فملوكها وأمراؤها يحكمونها حكماً استبدادياً، ولا يعترفون لشعوبهم بحقوقهم السياسية والمدنية، ولا يريدون أن يتخلوا عن سلطانهم المطلق القائم على الأهواء والشهوات، والنظم الداخلية للحكم قد استشرى فيها الفساد، والجهالة متفشية بين المواطنين، والأمية غالبة عليهم، والعقائد الدينية قد شابتها الأباطيل والخرافات، والجمود مستحوذ على العلماء والخواص، والأفكار مغلقة لا تنفذ إليها دعوة الحق أو التحرر من قيود التقاليد والأوهام.

فالاستعمار الخارجي. والاستبداد الداخلي. والتأخر والجمود الفكري. والغفلة الشاملة، تلك هي العناصر الجوهرية لحالة الشرق في منتصف القرن التاسع عشر.

هذه هي حالة الشرق عامة في العصر الذي ظهر فيه جمال الدين الأفغاني وكان لها ولا ريب دخل أيما دخل في تكوين شخصيته واتجاهاته؛ والتمهيد لكفاحه.

ولكن من الحق أن نقول إن هذه الحالة لم تحرك في نفوس معاصريه ما حركت في نفسه، فلماذا كانت العامل المؤثر في تكوين شخصيته؟ لقد شعر بهذه الحالة كثير من معاصريه ولكنها لم تصل في نفوسهم إلى درجة الثورة على الأوضاع القائمة مثل ما وصلت في نفس جمال الدين، فما هو السر في هذا الفارق؟ إن الجواب على هذا السؤال يبدو واضحاً جلياً إذا علمنا أن الأمم يظهر فيها حينا بعد حين زعماء يحملون لواء التحرير، أو الإصلاح والتجديد، ويمتازون

بناحية من نواحى العبقرية تؤهلهم للاضطلاع بأعباء هذه الرسالة، ولا شك أن جمال الدين الأفغانى قد امتاز على معاصريه بعبقريته ومواهبه، فكان واحدًا من هؤلاء العباقرة الذين حملوا رسالة النهضة والحرية وغرسوها فى نفوس معاصريهم.

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين الأفغانى، وظروفه وملابساته، وعبقريته ومواهبه، كان لها كلها الأثر المشترك فى تكوين شخصيته والتمهيد لكفاحه ودعوته.

سفره إلى الآستانة وأثره فيها ثم رحيله عنها

وصل السيد جمال الدين إلى الآستانة، فلقى من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة وإكرامًا، إذ عرف له الصدر الأعظم «عالى باشا» مكانته، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ، العارفين بأقدار الرجال، فأقبل على السيد يحفه بالاحترام والرعاية، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية، وتناقلوا الثناء عليه، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضوًا فى (مجلس المعارف)، فاضطلع بواجبه، وأشار بإصلاح مناهج التعليم.

ولكن آراءه لم تلق تأييدًا من زملائه، واستهدف لسخط شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى، إذ رأى فى تلك الآراء ما يمس شيئًا من رزقه، فأضمر له السوء، وأرصد له العنت، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ (ديسمبر سنة ١٨٧٠ م)، فرغب إليه مدير دار الفنون أن يلقى فيها خطابًا للحث على الصناعات، فاعتذر بادئ بدء بضعفه فى اللغة التركية، فألح عليه، فأنشأ خطابًا طويلًا كتبه قبل إلقائه، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية، فأقروه واستحسنوه.

وألقى السيد خطابه بدار الفنون، فى جمع حاشد من ذوى العلم والمكانة، فنال استحسانهم، ولكن شيخ الإسلام اتخذ من بعض آرائه مغمزًا للنيل منه بغير حق،

ورميه بالزيغ فى عقيدته، واغتنمها فرصة للإيقاع به، وألب عليه الوعـاظ فى المساجد، وأوعز إليهم أن يذكروا كلامه محفوفا بالتفنيد والتنديد، فغضب السيد لمكيدة شيخ الإسلام، وطلب محاكمتـه، ولكن الحكومـة انحازت إلى شيخهـا، وأصدرت أمرها إلى المترجم بالرحيل عن الآستانة بضعة أشهر، حتى تسكن الخواطر، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إليها إن شاء، ففارقها مهضومًا حقه، ورغب إليه بعض مريديه أن يتحول إلى الديار المصرية، فعمل برأيهم وقصد إليها.

على أن جهاده فى تركيا قد ظهر أثره على مر السنين فليس يخفى أن (مدحت باشا) الملقب بأبى الأحرار فى تركيا قد وضع مشروع الدستور وأعلن القانون الأساسى (الدستور) سنة ١٨٧٦، حقا إن البرلمان العثمانى الذى انتخب على أساسه لم يكد يجتمع حتى ألغى اجتماعه فى أوائل سنة ١٨٧٨ بأمر السلطان عبد الحميد، ونفى واضع الدستور مدحت باشا وعاد الحكم المطلق فى تركيا، على أن البذرة التى وضعها جمال الدين سنة ١٨٧٠ قد أثمرت على مدى السنين حتى حدث الانقلاب العثمانى وعاد الدستور سنة ١٩٠٨.

الفصل الثانى

عمله فى مصر

جاء السيد جمال الدين إلى مصر للمرة الثانية فى أوائل المحرم سنة ١٢٨٨ هـ (مارس سنة ١٨٧١ م)، لا على نية الإقامة بها، بل على قصد مشاهدة مناظرها، واستطلاع أحوالها، ولكن (رياض باشا) وزير إسماعيل فى ذلك الحين رغب إليه البقاء فى مصر، وأجرت عليه الحكومة - راتبًا مقداره ألف قرش كل شهر، نزلا أكرمته به، لا فى مقابل عمل، واهتدى إلى المترجم كثير من طلبة العلم، يستورون زنده، ويقتبسون الحكمة من بحر علمه، فقرأ لهم الكتب العالية فى فنون الكلام، والحكمة النظرية، من طبيعية وعقلية، وعلوم الفلك، والتصوف، وأصول الفقه، بأسلوب طريف، وطريقة مبتكرة، وكانت مدرسته بيته، ولم يذهب يومًا إلى الأزهر مدرسًا، وإنما ذهب إليه زائرًا، وأغلب ما يزوره يوم الجمعة، وكان أسلوبه فى التدريس مخاطبة العقل، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه إلى البحث والتفكير، وبث روح الحكمة والفلسفة فى نفوسهم، وتوجيه أذهانهم إلى الأدب، والإنشاء، والخطابة، وكتابة المقالات الأدبية، والإجتماعية، والسياسة، فظهرت على يده نهضة فى العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات.

وهنا موضع للتساؤل، عما حمل الخديو إسماعيل إلى استمالة الحكيم الأفغانى للإقامة فى مصر، وإكرام مثواه، فقد يبدو هذا العمل غريبًا، لأن لجمال الدين ماضيًا سياسيًّا، ومجموعة أخلاق ومبادئ، لا ترغب فيه الملوك المستبدون، ولم يكن السيد من أهل الملق والدهان فينال عطفهم ورعايتهم، ويجرون عليه الأرزاق بلا مقابل، ولكن الأمر لا يعسر فهمه إذا عرفنا أن فى إسماعيل جانبًا ممدوحًا، وهو حبه للعلم، ورغبته فى نشره ورعايته، وكانت شخصية جمال الدين العلمية، وشهرته فى الفلسفة، أقوى ظهورًا، وخاصة فى ذلك الحين، من شخصيته

السياسية، فلا غرو أن يكرم فيه إسماعيل العالم المحقق، الذى يفيض على مصر من بحر علمه وفضله، فترغيبه إياه فى البقاء بمصر يشبه أن يكون فتحًا علميًّا، كتأسيس معهد من معاهد العلم العالية التى أنشئت على يده.

أما آراء الحكيم السياسية، وكراهيته للاستبداد، ونزعته الحرة، فلم يكن مثل إسماعيل يخشاها أو يحسب لها حسابًا كبيرًا، لأنه فى ذلك الحين (سنة ١٨٧١) كان قد بلغ أوج سلطته، فكان يحكم البلاد حكمًا مطلقًا، يأمر وينهى، ويتصرف فى أقدار البلاد ومصاير أهلها، دون رقيب أو حسيب، وكان مجلس شورى النواب آلة مطواعة فى يده، والصحافة فى بدء عهدها تكيل له عبارات المديح، وتصوغ له عقود الثناء، ولم يكن سلطانه قد استهدف بعد للتدخل الأجنبى، لأن هذا التدخل لم يقع إلا فى سنة ١٨٧٥، فليس ثمة ما يخشى منه إسماعيل، على سلطته المطلقة، من الناحية الداخلية أو الخارجية، حين رغب إلى حكيم الشرق الإقامة والتدريس فى مصر، وقد بدأت النهضة التى ظهرت على يد السيد علمية، وأدبية، ولم تتطور إلى الناحية السياسية إلا حوالى سنة ١٨٧٦.

وثمة اعتبار آخر، لا يفوتنا الإلماع إليه، ذلك أن جمال الدين قد بارح الآستانة، إذ لم يجد فيها جوًّا صالحًا للنهضة العلمية،أوالفكرية، وقصد إلى مصر وقد سبقته إليها أنباؤه وما لقيه فى «دار الخلافة» من العنت والاضطهاد، وكان إسماعيل ينافس حكومة الآستانة فى المكانة والنفوذ السياسى؛ وينظر إليها بعين الزراية، ولا يرضى لمصر أن تكون تابعة لتركيا، ولا أن يكون هو تابعًا للسلطان العثمانى، وليس خافيًا ما كان يبذله من المساعى للانفصال عن تركيا فى ذلك الحين، وظهوره بمظهر العاهل المستقل، فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧، وفى إغفاله دعوة السلطان إلى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، وعزمه على إعلان استقلال مصر التام فى تلك الحفلات، لولا العقبات السياسية التى اعترضته، ولا يعزب عن الذهن ما كان بين الخديو والسلطان من مظاهر الفتور والجفاء التى كادت تقطع الروابط بينهما، وأخصها فرمان نوفمبر سنة ١٨٦٩ الذى أصدره السلطان منتقصًا سلطة الخديو.

ففى هذا الجو هبط جمال الدين مصر مبعدًا من الآستانة، فلم يفت إسماعيل

أن يغتنم الفرصة ليحمى العلم فى شخص الفيلسوف الأفغانى، ولا يخفى ما لهذا العمل من حسن الأثر وجميل الأحدوثة، إذ يرى الناس فيه أن مصر تؤوى العلماء والحكماء، حين تضيق عنهم «دار الخلافة». وأن عاهل مصر، أحق من السلطان العثمانى بالثناء والتقدير، لأنه يفسح للعلم رحابه، ويوطئ له فى وادى النيل أكنافه.

وقد يكون لرياض باشا يد فى إكرام وفادة المترجم، ولكن إذا علمنا أن وزراء إسماعيل لم يكونوا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، أدركنا أن رياض باشا لم يكن الرجل الذى ينفرد بهذا الصنيع، نحو المترجم، ومهما يكن من واقع الأمر فإن لرياض فضل المشاركة فى عمل كان له الأثر البالغ فى نهضة مصر العلمية والفكرية والسياسية.

أثره العلمى والأدبى فى مصر

أقام جمال الدين فى مصر، وأخذ يبث تعاليمه فى نفوس تلاميذه، فظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العلم والعرفان، وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان وغيرهم، وهو فى كل أحاديثه «لا يسأم، كما يقول عنه تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من الكلام فيما ينير العقل، أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر وتنبهت عقول، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصًا فى القاهرة».

وقال الأستاذ الإمام فى موطن آخر يصف تطور الكتابة على يد المترجم «كان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة

منحصرين فى عدد قليل، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى، وخيرى باشا، ومحمد باشا سيد أحمد، على ضعف فيه، ومصطفى باشا وهبى، على اختصاص فيه، ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية، وما شاكلها، ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى، لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث فى السن، شيوخ فى الصناعة، وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه، أو قلد المتصلين به». انتهى كلام الإمام.

فروح جمال الدين كان لها الأثر البالغ فى نهضة العلوم والآداب فى مصر، ولا يفوتنا القول بأن البيئة التى نهض بها كانت مستعدة للرقى، صالحة لغرس بذور هذه النهضة، وظهور ثمارها، أو بعبارة أخرى، إن مصر بما فيها من الأزهر، والمعاهد العلمية الحديثة، والتقدم العلمى، كانت على استعداد لتقبل دعوة الحكيم الأفغانى، ولولا هذا الاستعداد، لقضى على هذه الدعوة فى مهدها، ولأخفق هو فى مصر كما أخفق فى الآستانة، حيث وجد أبواب العمل موصدة أمامه، وهذا يبين لنا جانبًا من مكانة مصر، وسبقها الأقطار الشرقية فى التقدم العلمى والفكرى، والسياسى، ويزيد هذه الحقيقة وضوحًا، أنك إذا استعرضت حياة جمال الدين العامة وما تركه من الأثر فى مختلف الأقطار الشرقية التى بث فيها دعوته، وجدت أثره فى مصر أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الأخرى، وفى هذا ما يدلك على مبلغ استعداد مصر للنهضة والتقدم، إذا تهيأت لها أسباب العمل، ووجدت القادة الحكماء.

أثره الأخلاقى والسياسى

جاء المترجم مصر يحمل بين جنبيه عبقرية وروحًا كبيرة، ونفسًا قوية، تزينها صفات وأخلاق عالية، أنبتتها الوراثة والتربية الأولى، وهذبتها الحكمة والمعرفة ومحصتها الحياة الحربية التى خاض غمارها فى بلاد الأفغان، والتجارب التى مارسها، والشدائد التى عاناها، جاء وفيه من الشمم والإباء ما صرفه عن أن

يطأطئ الرأس ويقيم على الضيم، وفيه من الثبات ومضاء العزيمة ما جعله يتغلب على العقبات التي اعترضته في أدوار حياته، فقد رأيت كيف بقي على ولائه للأمير محمد أعظم، رغم ما أصابه من الهزيمة ولم يخضع لخصمه (شير علي)، ورحل إلى الهند، فلم تطق السياسة الإستعمارية بقاءه فيها وأقصته عنها، وذهب إلى الآستانة، فلم يعرف الملق والدهان، وجهر بالحق، واستهدف لعداوة شيخ الإسلام، فلم يتراجع ولم ينكص على عقبيه، وانتهى الخلاف بإقصائه عن الآستانة.

فهذه الأخلاق التي جاء بها جمال الدين إلى مصر كانت بلا مراء أقوى مما عرف عن المجتمع المصري، في ذلك العهد، من خفض الجناح، والصبر على الضيم، وليس يخفى ما للشخصيات الكبيرة من سلطان أدبي على النفوس، وما تؤثر فيها من طريق القدوة، فالسيد جمال الدين بما اتصف به من الأخلاق العالية، أخذ يبث في النفوس روح العزة والشهامة، ويحارب روح الذلة والاستكانة، فكان بنفسيته ودروسه وأحاديثه، ومناهجه في الحياة، مدرسة أخلاقية، رفعت من مستوى النفوس في مصر، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذي بدا على الأمة، وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة إلى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم في عهد إسماعيل ومساوئه. والسخط على تدخل الدول الأجنبية في شئون البلاد.

الحالة السياسية والمالية في مصر كما شهدها جمال الدين الأفغاني

قضى جمال الدين الأفغاني في مصر ثماني سنوات وبضعة أشهر من عام ١٨٧١ إلى أن نفي منها سنة ١٨٧٩ وقد شهدت هذه الفترة أحداثاً كبيرة في تاريخ مصر وكانت مرحلة هامة من مراحل كفاح جمال الدين، ويقع معظمها في عهد الخديو إسماعيل، وقد نفي جمال الدين في أوائل عهد توفيق.

كان إسماعيل يحكم البلاد حكماً مطلقاً، يتولاه بنفسه، وظلت كل صغيرة

وكبيرة من شئون الحكومة رهن إشارته بحيث كان يحق له أن يحاكى لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى قوله «إنما الدولة أنا» إلى أن حدث التدخل الأجنبى بواسطة (صندوق الدين) سنة ١٨٧٦ ثم الرقابة الثنائية البريطانية والفرنسية، ثم الوزارة المختلطة، فغلت سلطته بما كسبه الأجانب من التدخل فى شئون الحكومة المالية والسياسية، ولم يكن الوزراء (أو النظار كما كان اسمهم) سوى موظفين لدى الخديو، يعينهم لإدارة النظارات المعروفة فى ذلك العصر، وكانت تسمى (دواوين)، ولم يكن للنظار من السلطة إلا ما يتلقونه عن الخديو، وتضاءلت سلطتهم حتى أمام (المفتشين العموميين) وهما مفتش الوجه البحرى، ومفتش الوجه القبلى اللذين استحوذا على السلطة الإدارية والمالية فى الحكومة بأمر الخديو، وليس معروفاً على وجه التحقيق ما هى الحكمة فى إيجاد هذا النظام الذى يجعل سلطة المفتشين مساوية لسلطة النظار، ويجعلهم أعظم شأناً من هؤلاء، ويظهر أن السبب فى ذلك هو رغبة إسماعيل فى أن تتعارض السلطتان حتى تكون كل منهما رقيبة على الأخرى فيطمئن على سلوك كلتيهما. وهى قاعدة مألوفة فى حكومات الاستبداد.

كان الحكم إذن حكماً استبدادياً لا مجال فيه للحرية، حقاً إن إسماعيل أنشأ بسنة ١٨٦٦ مجلساً سمى (مجلس شورى النواب) ولكنه مجلس استشارى لا يملك سلطة قطعية فى أى أمر من الأمور، وقراراته كانت أشبه برغبات ترفع إلى الخديو وله فيها القول الفصل، فلم يكن ممكناً أن مثل هذا المجلس يؤثر تأثيراً عملياً فى سياسة الحكومة ولا أن يضع حداً للحكم المطلق، وتدل الظروف والملابسات على أن إسماعيل حين أنشأه لم يعتزم التخلى عن سلطته المطلقة بل أراد أن يجعل منه هيئة استشارية تزيد من رونق الحكم وبهائه[1].

هذا من الوجهة السياسية، أما من الوجهة المالية فقد كانت أسوأ منها حالاً، لقد كان أكبر آفات إسماعيل الإسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب من غير حساب أو نظر فى العواقب، حتى كبل البلاد حكومة وشعباً بالقروض الفاحشة.

---

(١) عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٩٦

وفى الجدول الآتى بيان الديون التى اقترضها إسماعيل أو اقترضتها الحكومة فى عهده:

قروض مصر فى عهد إسماعيل

تاريخ القرض	قيمة القرض	
سنة ١٨٦٤	٥,٧٠٤,٢٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٥	٣,٣٨٧,٣٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٦	٣,٠٠٠,٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٧	٢,٠٨٠,٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٦٨	١١,٨٩٠,٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٧٠	٧,١٤٢,٨٦٠	جنيه انجليزى
الديون السائرة	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٧٨	٣٢,٠٠٠,٠٠٠	جنيه انجليزى
سنة ١٨٨٨	٨,٥٠٠,٠٠٠	جنيه انجليزى

ويضاف إلى ذلك المبالغ الآتية التى تلحق بالقروض وترد فى سياقها وهى:

المتحصل من المقابلة	١٣,٥٠٠,٠٠٠	جنيه انجليزى
دين الرزنامة	٣,٣٣٧,٠٠٠	جنيه انجليزى
ثمن أسهم مصر فى قناة السويس	٤,٠٠٠,٠٠٠	جنيه انجليزى
ما أخذ من الأوقاف الخيرية وبيت المال	٥٣٧,٠٠٠	جنيه انجليزى
مطلوبات من الحكومة لم تدخل فى تسوية الدين العام سنة ١٨٧٦	٦,٢٧٦,٠٠٠	جنيه انجليزى
المجموع	١٢٦,٣٥٤,٣٦٠	جنيه انجليزى

نظرة عامة فى هذه القروض

كان على البلاد من الدين العام عند وفاة سعيد باشا نحو أحد عشر مليون جنيه، وهو فى الواقع مبلغ جسيم إذا قورن بميزانية مصر فى ذلك العصر.

وقد ندد إسماعيل حينما تبوأ عرش مصر سنة ١٨٦٣ بإسراف سلفه سعيد، واعتزم أن يسير طبقًا لقواعد الاقتصاد والتدبير[١]، ونوه بذلك فى خطبة ألقاها بحضور وكلاء الدول، وضح فيها برنامجه الذى اعتزم اتباعه فى الحكم، فهى بمثابة (خطبة العرش) تفيض بالآمال الكبار والأمانى الحسان.

قال فيها «إن أساس الإدارة هو النظام والاقتصاد فى المالية، وسأبذل كل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد، وقد عزمت أن أرتب لنفسى مخصصات محدودة لا أتجاوزها أبدًا، وسأعمل على إبطال السخرة التى اعتمدت عليها الحكومة فى أعمالها وآمل أن تؤدى حرية التجارة إلى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب وسأعنى كل العناية بتوطيد دعائم العدالة».

تلك عهود الخديو إسماعيل فى خطبة العرش وأولها اتباع قواعد النظام والاقتصاد.

ولكن لم تكد تمضى عدة أشهر على هذه الدعوة حتى أخذ ينقضها، ففتح باب القروض متلاحقة بعضها إثر بعض، واتخذها عادة تكاد تكون سنوية.

ولم تكن حالة البلاد المالية تستدعى الاقتراض، لأن مصر تعد من أغنى بلاد العالم، وكانت تستطيع إذا هى وجدت إدارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج إلى القروض، وعلاوة على ذلك فإن ما نشأ عن الحرب الأمريكية الأهلية من ارتفاع أسعار القطن فى أوائل حكم إسماعيل، قد جعل البلاد فى حالة يسر ورخاء.

واشتملت ميزانية سنة ١٨٦٤ على زيادة فى الدخل على الخرج، فلم يكن ثمة

---

(١) تاريخ مصر المالى من عهد سعيد إلى سنة ١٨٧٦ لبابونو Paronot ص ١٨، ١٩.

حاجة إلى قرض جديد كما يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عاش فى ذلك العصر وألف فيه كتابه القيم[١].

ولكن إسماعيل اقترض أول قروضه سنة ١٨٦٤، تذرع لتسويغه بحاجة الحكومة إلى المال لمقاومة الطاعون البقرى الذى انتاب البلاد فى ذلك العهد، ولسداد أقساط ديون سعيد باشا، ويقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) إن مقاومة الطاعون البقرى كانت حجة واهية، لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون، ولم يرد بميزانية سنة ١٨٦٤ مما أنفقته الحكومة فى هذا الصدد سوى ١٢٥,٠٠٠ جنيه، ولذلك أبـدى دهشته من أن الحكومة تلجأ إلى الاقتراض على ما فى ميزانية سنة ١٨٦٤ من زيادة الدخل على الخرج.

وقال إن السبب الحقيقى لقرض سنة ١٨٦٤ أن إسماعيل لم يحقق وعود الاقتصاد التى قطعها على نفسه، بل سار سيرة بذخ وهوى وإسراف، واستكثر من شراء الأطيان والأملاك لنفسه، والإنفاق عليها، فهذه الأسباب هى التى جعلته يعقد القرض الأول، وما كان سداد ديون سعيد، ولا الإنفاق على مقاومة الطاعون البقرى، إلا ذريعة شكلية لذر الرماد فى العيون.

هذا ما يقوله مؤلف تاريخ مصر المالى، وهو كاتب مشهود له بتحرى الحقائق والاعتدال فى الرأى، وليس فى كلامه مبالغة، لأن المعروف عن إسماعيل أنه كان بطبعه ميالاً إلى الاستكثار من المال والعقار، وظهرت عليه هذه الميول، منذ ولايته الحكم، فقد كان نظار أملاكه ومفتشوها يفتنون فى حمل الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو، حتى صار مالكًا لخمس أطيان القطر المصرى.

كتبت مدام (أولمب ادوار) Mme Olympe Edward فى كتابها عن مصر تقول عن الخديو إسماعيل: إنه لم يكن يهتم إلا بجمع الملايين، وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية قدر ما يستطاع، ويلجأ إلى السخرة لزرعها واستصلاحها، ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة، تاركًا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد

---

(١) تاريخ مصر المالى من عهد سعيد إلى سنة ١٨٧٦ لبابونو Paronot ص ١٨، ١٩.

ديونه، حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتى من بعده[١].

كتب هذا الكلام فى ديسمبر سنة ١٨٦٤، ولم يكن مضى عامان على اعتلاء إسماعيل العرش، فهذا الوصف يعطيك صورة عن ميوله الأولى، فهو قد بدأ يستدين فى الوقت الذى لم تكن البلاد فى حاجة ما إلى الاستدانة واستدان ليقتنى الأطيان والعقار.

لم ينفق إسماعيل شيئًا يذكر من قرض سنة ١٨٦٤ على مرافق البلاد العامة بل أنفق معظمه على توسيع دائرة أطيانه وأملاكه، واشترى فى ذلك الحين قصر (ميركون) على ضفاف البوسفور ليتخذه مقرًا له عندما ينزل الآستانة، ولم يكن لولاة مصر قصور خاصة بهذه المدينة ينزلون بها من قبل، ولكن إسماعيل رأى من استكمال مظاهر البذخ أن يكون له قصر فخم لا يقل بهاء ورواء عن قصور السلاطين، فابتاع ذلك القصر وأنفق المبالغ الطائلة فى توسيعه وزخرفته.

وفى ذلك العهد بدأ ينشىء القصور الفخمة فى مصر، فشرع فى إقامة سراى الجيزة المشهورة، وتعددت المبانى حولها، ومدت الطرق الجميلة بين الجيزة والجزيرة، وأنفقت الأموال جزافًا فى سبيل إنشائها.

فهذه النفقات الباهظة جعلت إسماعيل يفكر فى قرض آخر سنة ١٨٦٥ ولم تمض ثمانية أشهر على القرض الأول.

وقد جد سبب آخر دعا إسماعيل إلى عقد القرض الثانى، وهو الأزمة المالية التى عقبت هبوط أسعار القطن، ذلك أن انتهاء الحرب الأمريكية الأهلية فى أوائل سنة ١٨٦٥ فتح الأسواق امام القطن الأمريكى، فتراجعت أسعار القطن المصرى إلى مستواها القديم، وقد حل الضيق بالأهالى من الفلاحين والملاك، لأنهم اعتادوا أثناء ارتفاع أسعار القطن أن ينفقوا عن سعة ويستدينوا المال بفوائد فاحشة من المرابين على أمل سداده من ثمن القطن فى الموسم المقبل (كما حدث سنة ١٩١٩، والتاريخ يعيد نفسه)، فلما هبطت أسعار القطن وقعوا فى أزمة شديدة عرفت بأزمة سنة ١٨٦٥، ولم يدروا كيف يوفون ديونهم، فاعتزم

---

(١) كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولمب أدوار Mme Olympe Edward ص ٤٩.

إسماعيل أن تتدخل الحكومة فى هذه الأزمة فحصرت ديون الأهلين وسددتها عنهم للدائنين والمرابين على أن ترجع بها على المدينين مقسطة على سبع سنوات بفائدة ٧٪، وخصص لهذه العملية ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه.

ولا شك فى أن إسماعيل لو اتبع التدبير والاقتصاد، لما كانت الحكومة فى حاجة إلى هذا القرض الجديد، ولا الذى سبقه، فضلاً عن الديون السائرة التى لم يكن يعرف مقدارها، وهى الديون التى كان الخديو يقترضها بسندات على الخزانة.

اقترض إسماعيل قرضًا سنة ١٨٦٥ من بنك الأنجلو، وقدره ٣,٣٨٧,٣٠٠ جنيه ولم يقبض منه سوى ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه. ورهن فى مقابله ٣٦٥,٠٠٠ فدان من أملاكه، ويسمى هذا الدين قرض (الدائرة السنية الأول).

واستدان قرضًا جديدًا من بنك أوبنهايم فى ٥ يناير سنة ١٨٦٦، وقدره ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، ورهن فى مقابله إيرادات السكك الحديدية.

وقد جرت المفاوضات بشأن هذا القرض أثناء مفاوضات القرض السابق، وهذا من أغرب ما سمع فى معرض التبذير وقصر النظر، وكان قرض أوبنهايم هو الأسبق، لكن المفاوضات بشأنه طالت، فلم يطق إسماعيل صبرا، واستدان من بنك الأنجلو القرض السابق، ثم تمت المفاوضات الخاصة بقرض أوبنهايم، فأتم صفقته أيضا.

واستدان إسماعيل فى تلك السنة أيضا دينين آخرين من الديون السائرة، ولم يكن فى حاجة إلى هذه القروض، ولكنه أنفقها على بناء قصوره، ودفع منها ثمن أملاك أخيه مصطفى فاضل وعمه محمد عبد الحليم فقد كان ميالاً إلى الاستكثار من الأملاك بكل الوسائل كما أسلفنا، وامتدت أطماعه إلى تجريد الأميرين المذكورين من أملاكهما بالقطر المصرى، وكان يحقد عليهما لمنافستهما إياه على العرش، واشتد عداؤه لهما لمقاومتهما إياه فى تغيير نظام التوارث، وقد حصل إسماعيل على فرمان مايو سنة ١٨٦٦ الذى جعل وراثة العرش فى بكر أبنائه.

ومن قرض سنة ١٨٦٦ والديون السائرة أدى الرشوة التى بذلها لسلطان

تركيا ولحكام الآستانة للحصول على هذا الفرمان، وقد بلغت هذه الرشوة ثلاثة ملايين جنيه تقريبا، ودفع ثمن أملاك الأميرين مصطفى فاضل ومحمد عبد الحليم.

فترى مما تقدم أن هذه القروض ضاعت فيما لا ينفع البلاد، لأن تغيير نظام توارث العرش كان مسألة شخصية لإسماعيل، وكذلك شراء أملاك أخيه وعمه، فكان إسماعيل اقترض هذه الديون لكى تتسع أملاكه، وتحقيقاً لأطماع شخصية وإرضاء لحزازات عائلية لا شأن للبلاد فيها.

واقترض سنة ١٨٦٧ قرضًا جديدًا قيمته ٢,٨٠٠,٠٠٠ جنيه، ولم يعرف سبب ظاهر لهذا القرض، واختلفت الآراء فى تعليله، ولكن التعليل الصحيح أن الخديو علاوة على القروض السابقة كان لايفتأ يستدين ديونًا سائرة من المرابين الأجانب المقيمين فى مصر، ولم يكن لهذه الديون حساب ظاهر، ولا حد معلوم، وكل ما عرف عنها أنها كانت ذات فوائد فاحشة جدًّا، وكان العمل فى ذلك الحين قائمًا على قدم وساق لتجديد حديقة الأزبكية، وبناء دار التمثيل، ومضمار لسباق الخيل، وبناء قصور عابدين والقبة والزعفران والجيزة والقصر العالى وسراى مصطفى باشا فاضل برمل الإسكندرية، فكل هذه المبانى كان ينفق عليها من الديون، ثابتة كانت أو سائرة، لأن ميزانية الحكومة ما كانت تسمح بإقامتها.

وقد بلغت الديون السائرة إلى ذلك الحين نحو عشرة ملايين جنيه، وهو مبلغ باهظ يثقل كاهل الخزانة، وفوائده تبتلع جزءًا كبيرًا من الإيراد، فتذرع الخديو إلى عقد قرض سنة ١٨٦٧ برغبته فى سداد فوائد هذه الديون، وفى تحويل الديون السائرة جميعها إلى دين ثابت، على أن الديون وفوائدها بقيت كما كانت، فلا هى سددت ولا فوائدها سددت، ولا تم تحويلها.

واشترك الخديو فى المعرض العام الذى أقيم بباريس سنة ١٨٦٧، وظهر فيه بمظهر فخم يأخذ بالألباب، فأنفق فى هذا السبيل وفى رحلته بباريس ملايين الجنيهات، وكان غرضه من هذا الإسراف هو الظهور بمظهر العظمة واجتذاب ثقة البيوت المالية الأجنبية لتقرضه من جديد، وضاع من قبل جانب من هذه الملايين فى الرشاوى والهدايا التى بذلها فى الآستانة ليحصل على لقب (خديو)،

وقد نال الفرمان الذى منحه هذا اللقب فى ٨ يونية سنة ١٨٦٧.

فلهذه الأسباب خلت خزانة الحكومة من المال، ولجأ الخديو إلى الأستدانة من جديد.

واقترض فعلاً سنة ١٨٦٨ قرضًا جديدًا قدره ١١,٨٩٠,٠٠٠ جنيه من بنك أو بنهايم، وكان من شروط هذا القرض أن يكف الخديو عن الاستدانة مدة خمس سنوات.

أنفق إسماعيل من القرض نحو مليونى جنيه فى الآستانة على حفلات وولائم ورشاوى للسلطان ولرجال حكومته.

وأنفق جزءًا منه فى إتمام بناء قصوره فى عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى باشا بالإسكندرية، وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش، من هذا القرض أيضا أنفق النفقات الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، وقد بلغت مليونًا ونصف مليون جنيه تقريبًا.

ولم تكد تنتهى حفلات القناة حتى أخذ معين الماء ينضب من الخزانة، وكان إسماعيل مقيدًا بما اشترطه فى القرض السابق، وهو عدم الإقتراض لمدة خمس سنوات، فضلاً عن أنه خرج من حفلات القناة وقد ألقى فى روع ضيوفه الأوروبيين أن خزائن مصر تفيض بالمال، وفى الواقع أن مظاهر هذه الحفلات وما أنفق عليها من الملايين، لا تدع مجالاً للشك فى ذلك، فلم يجد من اللائق ولا من السائغ أن يمد يده إلى البيوت المالية ويطلب قرضًا جديدًا!!

ولكنه كان فى حاجة إلى المال فابتكر له وزيره إسماعيل صديق (المفتش) طريقة خطرة اتبعها فى صيف سنة ١٨٦٩، وهى أنه باع إلى التجار الإفرنج مقادير كبيرة من بذرة القطن، تربى على خمسمائة ألف أردب، قبض ثمنها نقدًا، ووعد بتسليمها بعد خمسة أشهر، أى بعد جنى محصول القطن الجديد.

ولما انقضى الميعاد اتضح أن الحكومة باعت ما لديها من محصول القطن مرة ثانية، وقبضت ثمنه، وقد سويت هذه الفضيحة بأن طلبت الحكومة من التجار أن يبيعوها بسعر ٧٨ قرشًا ما اشتروه منها بسعر ٧١ قرشا، واتفقوا على أن تدفع

لهم القيمة إفادات مالية تسرى عليها فوائد ١٢٪ سنويًا أى أن ربحهم بلغ ١٠٪ سنويًا.

وتكررت هذه العملية غير مرة فى سنوات عدة، فقد كانت الحكومة تبيع للتجار الأجانب غلالاً ليست فى حوزتها ولا ينتظر أن تحوزها، وتتسلم الثمن فورًا، فإذا جاء موعد تسليم الغلال اشترتها من ذات التاجر الذى باعته إياها، ودفعت ثمنها أوراقًا وسندات على الخزانة، مع فوائد لا تقل عن ١٨٪ أو ٢٠ فى المائة، ولا تحتسب الفوائد على المبلغ الأصلى الذى أخذته من التاجر، بل على المبلغ التالى المقدر ثمنًا لغلاله، وناهيك بما يصيب الحكومة من جراء هذه العمليات من الخسائر الفادحة.

وإذ كان إسماعيل مقيدًا بعدم الاقتراض طبقًا لشروط سلفة سنة ١٨٦٨، ومن جهة أخرى فقد لفتت القروض وضخامتها أنظار الحكومة التركية، فحاولت وضع حد لها، وحظرت على الخديو بمقتضى فرمان سنة ١٨٦٩ أن يقترض إلا بإذنها، ولكن إسماعيل كان يريد الإقتراض بأية وسيلة، فلم ير بدًا من أن يعقد قرضًا لحسابه الخاص.

فاستدان فى أبريل سنة ١٨٧٠ من البنك الفرنساوى المصرى ٧,١٤٢,٨٦٠جنيه بفائدة ٧٪ بضمان أطيانه الخاصة، عدا الأطيان التى رهنها سابقًا، ولذلك سمى هذا القرض قرض الدائرة السنية الثانى، وصدر بواقع ٦٧ فى المائة، فكانت النتيجة أنه لم يدخل منه إلى خزائن الخديو سوى ٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، ولكنه يسدد على القيمة الاسمية وهى ٧,١٤٢,٨٦٠ جنيها فى عشرين سنة، وبلغ العبء الذى احتملته الدائرة السنية سنويًا لأداء هذا الدين ٦٦٨,٩٦٠ جنيها أى ١٣ فى المائة تقريبًا من رأس المال المدفوع.

وبلغت الديون السائرة نحو خمسة وعشرين مليون جنيه.

أما فوائد هذه الديون السائرة، فلم يكن لها حساب معلوم، فالسيوجليون دنجلار Gellion Danglar, يقول فى رسائله[1] أن الدائرة الخاصة وهى دائرة

(١) رسائل عن مصر الحديثة ص ٦٦.

الخديو إسماعيل كانت تقترض بفائدة ٢٠٪ و ٢٤٪ في السنة، وأن الحالة المالية فى السنة التى كتب فيها رسائله (عام ١٨٦٧) كانت سيئة لدرجة أن الموظفين لم تدفع لهم رواتبهم مدة ثمانية أشهر.

الحالة المالية سنة ١٨٧٠

يتضح مما تقدم مبلغ مابهظ كاهل الخزانة العامة من القروض المتتابعة التى عقدها إسماعيل، ومقدار الارتباك الذى وقعت فيه الحكومة وأوصلها إلى حالة سيئة من فقدان التوازن.

على أن هذه الحالة، لو عولجت بالحكمة وحسن التدبير، لأمكن إنقاذ البلاد من الكوارث المالية التى وقعت من بعد، فلو وضع إسماعيل حدًّا لإسرافه وأهوائه، لسار بالبلاد فى طريق مأمون، وأمكنه مع الزمن إعادة التوازن إلى مالية الحكومة، ولكنه على العكس استمر فى خطته، وتلت القروض قروض، حتى فقدت البلاد استقلالها المالى.

ومما جعل إسماعيل يتمادى فى الإسراف والاستدانة أنه لم تكن فى البلاد هيئات نيابية تراقب تصرفات الحكومة، وتحاسبها على الأموال التى تبددها، أما مجلس شورى النواب فكان يكتفى بالبيانات الملفقة أو المبهمة التى يقدمها وزير المالية إسماعيل صديق فى كل انعقاد، ولم يكن بالمجلس شعور بالمسئولية يدفع أعضاءه إلى الاعتراض على سياسة الحكومة المالية، وما جرته من الخراب على البلاد، وكذلك لم يوجد من بين بطانة إسماعيل من كان يعترض أعتراضًا جديًّا على تلك السياسة، أو يبصر الخديو بعواقبها الوخيمة، ولو وجدت حكومة مسئولة أمام هيئة نيابية صحيحة لما استمر الخديو وحاشيته على هذه السياسة المحزنة.

وفى سنة ١٨٧٠ نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا، وهى الحرب المشهورة بالحرب السبعينية، فاضطربت الأسواق فى أوروبا، وقبضت البيوت المالية يدها عن الإقراض، وكان الخديو فى حاجة إلى المال، فعمد وزير ماليته إلى زيادة

الضرائب، ولكن هذا المعين لم يف بطلباته، فابتدع طريقة تعد بمنزلة قرض إجبارى يجبى من الأهالى، أو ضريبة جديدة تفرض على أطيانهم، وصدر بها القانون المشهور بلائحة المقابلة فى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧١.

يقضى هذا القانون بأنه إذا دفع ملاك الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدمًا تعفى الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها ولكى يحصلوا على هذه الميزة يدفعون ضرائب السنوات الست دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة، لا تزيد مدتها عن ست سنوات، علاوة على الضريبة السنوية، وتحسب لهم فوائد عما يدفعونه مقدمًا بواقع ٨½٪.

وقد جعل هذا القانون دفع المقابلة اختياريًا، ولكن الحكومة لجأت فى تنفيذه إلى التوريط بالنسبة للباشوات وكبار الأعيان، والى الضغط والإكراه والضرب بالكرباج بالنسبة لسائر الأهلين، ولولا الإكراه لما ارتضى الناس المخاطرة بأموالهم، لأنهم يعلمون مبلغ عهود الحكومة، وخاصة فى المسائل المالية، فهم لم يدفعوا المقابلة إلا مكرهين، فكانت ضريبة جديدة أو سلفة إجبارية زادتهم إرهاقًا وضنكًا.

وقد استطاعت الحكومة أن تجبى من هذه الضريبة خمسة ملايين من الجنيهات لغاية آخر سنة ١٨٧١، وبلغ مجموع ما جبته منها نيفًا وثلاثة عشر مليون جنيه ونصفًا لغاية سنة ١٨٧٧.

وانتظر إسماعيل بفارغ الصبر انتهاء السنوات الخمس التى حظر فيها على نفسه عقد قروض جديدة تنفيذًا لشروط سلفة سنة ١٨٦٨، وسعى جهده فى الآستانة وبذل فيها الأموال الطائلة من الرشاوى والهدايا ليلغى فرمان سنة ١٨٦٩ ويحصل على الفرمان الذى يبيح له الاقتراض من غير حاجة إلى إذن الحكومة التركية، فناله فى سنة ١٨٧٢.

فلم تكد تنتهى هذه المدة ويشعر إسماعيل بفك اعتقاله من هذا القيد، حتى عقد قرضًا جديدًا من بيت أوبنهايم المالى قدره ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، وهو أكبر القروض من جهة القيمة، وأسوؤها من جهة الشروط، وقد دعاه الماليون «القرض الكبير»، وهو حقيق بأن يسمى «القرض المشئوم».

وكانت حجته فى هذا القرض أنه اعتزم سداد الديون السائرة، ولكنه فى الواقع لم يخصص شيئًا منه لهذه الغاية، وبقيت الديون السائرة كما كانت.

عقد هذا القرض بفائدة ٧٪ وقيمة سنداته ٨٤½ فى المائة، وبلغ ما دخل الخزانة منه بعد استبعاد النفقات والخصم والسمسرة ٢٠,٧٤٠,٠٧٧ جنيه، أى ينقص ٣٧٪ من قيمة الدين الإسمية، فخسرت الحكومة من أصل القرض نيفًا وأحد عشر مليون جنيه، فى حين أنها التزمت بقسط سنوى لسداده يبلغ ٢,٢٦٥,٦٧١ جنيه، ثم أنها لم تقبض المبلغ نقدًا، بل تسلمت منه فقط أحد عشر مليون جنيه، والباقى وقدره تسعة ملايين جعلت سندات للخزانة المصرية.

ومن هذا يتبين أن قرضًا ألقى على عاتق البلاد عبئًا جسيمًا مقداره اثنان وثلاثون مليون جنيه، بلغ صافى ما تسلمته الحكومة منه نقدًا أحد عشر مليون جنيه فقط، وليس فى تاريخ القروض، فى العالم قاطبة، قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة، بل هذه السرقة العلنية، كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد على مثل هذه الشروط.

ومن تهكم الأقدار أن السنة التى عقد فيها إسماعيل هذا القرض المنحوس هى ذات السنة التى نال فيها فرمان سنة ١٨٧٣ الجامع الذى خوله أقصى ما حصل عليه من المزايا، أو بعبارة أخرى أن إسماعيل قد بلغ أوج نفوذه الرسمى فى علاقته مع تركيا فى الوقت الذى أشرفت فيه البلاد على حالة من الإفلاس أفقدتها استقلالها المالى ثم السياسى.

واحتاج إسماعيل إلى قرض آخر سنة ١٨٧٤، فابتدع له وزير ماليته إسماعيل صديق (المفتش) وسيلة جديدة يقترض بها من الأهالى دينًا سمى (دين الرزنامة).

كانت مصلحة «الرزنامة» تودع فيها رءوس أموال للمستحقين مقابل دفع معاشات لهم، فابتكر إسماعيل صديق فكرة جديدة، وهى أن يستثمر الأهالى أموالهم فى مصلحة الرزنامة، بأن يدعو فيها المدخر من هذه الأموال على أن تستثمرها المصلحة فى مشروعات صناعية وتجارية، وتصدر الرزنامة سندات إيراد دائم بما لا يزيد عن خمسة ملايين من الجنيهات، على أن تكون المائة فيها مائة،

ويكون ثمن هذه السندات متراوحًا بين جنيهين ونصف وخمسة جنيهات، وتدفع المصلحة فوائد عنها بحساب ٩٪.

وقد أوجس الأهلون شرًا من هذه الطريقة فى ابتزاز أموالهم، لأنهم عالمون بمصيرها، لكن الحكومة لجأت إلى الطريقة التى اتبعتها فى تحصيل المقابلة، فبلغ ما ساهم فيه الأهالى من سندات هذا القرض الإجبارى ٣,٣٣٧,٠٠٠ جنيه، لم يدخل الخزانة منها سوى ١,٨٧٨,٠٠٠ جنيه، ولم تدفع من فوائدها سوى جزء من فوائد السنة الأولى.

ولم تكف هذه القروض طلبات الخديو وبطانته، بل استولوا أيضًا على ما فى خزائن بيت المال والأوقاف الخيرية من الأموال المودعة على ذمة الخيرات أو لحساب القصر والأيتام.

وبلغ ما أخذ من هذا الباب ٥٣٧,٠٠٠ جنيه.

واستمر إسماعيل صديق يستدين بواسطة المالية من المرابين الأجانب، فازداد الدين السائر تضخمًا.

وثمة مطلوبات من الحكومة لتجار ومقاولين ودوائر، أو رصيد حسابات جارية للبنوك ورواتب متأخرة للموظفين وأرباب المعاشات وقد بلغت هذه المطلوبات ٦,٢٧٦,٠٠٠ جنيه أضيفت إلى الدين السائر.

التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية

لم يكن ممكنا أن يبقى استقلال البلاد سليمًا مع بلوغ القروض الحد الذى أوجزناه، لأن هذه القروض هى أموال أجنبية، دفعها ماليون ومرابون ينتمون إلى دول أوروبية تطمح من قديم الزمن إلى التدخل فى شئون مصر، وهذه الملايين من الجنيهات المقترضة من شأنها أن تفقد البلاد استقلالها المالى، كما يفقد الفرد استقلاله وكيانه الذاتى إذا ركبته الديون، فيصبح أسير دائنيه، والقروض التى استدانها الخديو صار لها من الفوائد ما يبتلع معظم ميزانية الحكومة، وهذا وحده يعطيك فكرة عن فداحتها، فلا عجب أن تكون النتيجة فتح أبواب

التدخل الأجنبى فى شئون مصر على مصراعيه، وقد بدأ هذا التدخل مـاليًا، ولكنه كان يطوى فى ثناياه عوامل التدخل السياسى، فكان تدخلاً مزدوجًا.

وقد أخذ هذا التدخل شكلًا خطيرًا لافتًا للأنظار سنة ١٨٧٥، حين اشترت بريطانيا أسهم مصر فى قناة السويس، وهى صفقة خاسرة لأن شراء الحكومة البريطانية أسهم مصر فى القناة كان كارثة عـلى مصر، إذ كـانت أول خطوة خطتها إنجلترا نحو الاحتلال الذى وقع سنة ١٨٨٢.

ولما ساءت حالة الخزانة، ورأى إسماعيل أن البيوت المالية الأوروبية قـد تزعزعت ثقتها فى كفاءة الحكومة المصرية ومقدرتها على الوفاء، أراد أن يقدم لها برهانًا على أن مصر مازالت رغم الديون الباهظة قادرة على السداد، فابتكر وسيلة ظن أنها تصل به إلى هذه الغاية، وذلك أنـه عرض سنـة ١٨٧٥ على بريطانيا إيفاد موظف مالى كفء يدرس حالة الحكومة المالية، ويعاون وزير المالية المصرية على إصلاح الخلل الذى يعترف به فى هذه الوزارة.

وكان تقدير إسماعيل أن هذه البعثة تحت تأثير إرشاده ونفوذه، وما يحيطها به من الحفاوة والإكرام، وما يلوح به أمامها من مظاهـر البذخ والإسـراف، لا تلبث أن تقدم تقريرًا بأن حالة الخزانة المصرية حسنة تسمح بـالثقة بهـا، فيرتكن على هذا التقرير، لكى يقنع البيوت المالية الأوروبية باقتراضـه من جديد، فالغاية كما ترى لم تكن متفقة مع مصلحة البلاد، لأنه على فرض أن هذه البعثة تنساق إلى إرشاداته، فإن اقتراضه من جديد لم يكن علاجًا ناجعًا لحالة البلاد المالية، بل هو مضاعفة للداء الذى أصابها من القروض.

وقد اتجه إسماعيل صوب إنجلترا فى طلب هذه البعثة، لأن فرنسا كانت قد خرجت مضعضعة من الحرب السبعينية، ومع أنها كانت قبلة أنظاره من قبل، فإن هزيمتها فى تلك الحرب جعلته يدير شراعه نحو بريطانيا، فطلب إليها إيفاد تلك البعثة.

لبت الحكومة الإنجليزية نداء إسماعيل، لأنها وجدت فى طلبه فرصة جديدة للتدخل فى شئون مصر، وأوفدت إليه بعثة مؤلفة من أربعة من موظفيها برياسة

المستر «استفن كيف» «Cave» أحد الماليين المعدودين من الإنجليز، ومن هنا جاءت تسميتها «بعثة كيف».

كانت هذه البعثة وما خولها إسماعيل من حق معاونة وزير المالية على إصلاح الخلل الذى أصاب وزارته، مظهرًا من مظاهر التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية، وقد وقع هذا التدخل بعد أن أبرم إسماعيل بيع الأسهم المصرية فى القناة، فكانتا ضربتين قاصمتين، أصابتا مصر فى استقلالها المالى وكيانها القومى.

جاءت البعثة إلى مصر وفحصت حالة مصر المالية وقدمت تقريرها، أشارت فيه إلى سوء حالة المالية المصرية، واقترحت كشرط ضرورى لإصلاحها أن تخضع للمشورة الأوروبية، بأن تنشىء الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها برياسة شخص ذى ثقة أشارت تلميحًا بأن يكون بريطانيا، واشترطت أن يحترم الخديو قرارات هذه المصلحة ولا يعقد قرضًا إلا بموافقتها.

وسارت الضائقة المالية فى طريقها، وأعوز الخزانة المصرية المال اللازم لأداء أقساط الديون، وأخيرًا عجزت عن الوفاء، فأصدر الخديو مرسوما فى ٦ أبريل سنة ١٨٧٦ بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة فى أبريل ومايو ثلاثة أشهر، ولم يكن تحديد هذه الثلاثة الأشهر إلا للمحافظة على الظواهر، وكان الغرض هو التأجيل إلى ما شاء الله، وأعلن هذا المرسوم فى بورصة الإسكندرية يوم ٨ أبريل، فكان هذا إيذانا بالتوقف عن الدفع، أو بعبارة أخرى بالإفلاس، ولما ذاع هذا المرسوم سرى السخط والذعر إلى الأسواق المالية الأوروبية واستهدف إسماعيل لمطاعن الماليين والمرابين الأجانب، وانقلبوا يتهددون ويتوعدون، بعد أن كانوا حتى الأمس يداهنون ويتملقون.

شعر الخديو بارتباك الحالة المالية، وما تنطوى عليه من الأخطار، وما يجر إليه سخط الماليين الأوروبيين من العواقب، فأراد استرضاء الدائنين بوضع نظام يكفل لهم استيفاء ديونهم، فطلب إلى وكلاء الدائنين بمصر وضع النظام الذى يرتضونه، فقدم وكلاء الماليين الفرنسيين مشروعًا بانشاء (صندوق الدين) وتوحيد الديون.

واستجاب إسماعيل لمطالب وكلاء الدائنين الفرنسيين، وأصدر مرسومًا فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بإنشاء (صندوق الدين) ومهمته أن يكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتولى تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية، وخصص له إيراد مديريات الغربية، والمنوفية، والبحيرة، وأسيوط، وعوايد الدخولية فى القاهرة والإسكندرية، ايراد جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش، وإيراد السكك الحديدية، ورسوم الدخان، وإيراد المصلح (ضريبة الملح)، ومصايد المطرية (دقهلية)، ورسوم الكبارى، وعوايد الملاحة فى النيل، وإيراد كوبرى قصر النيل، وإيراد أطيان الدائرة السنية، أى أنه خصص لسداد الديون معظم موارد الخزانة المصرية.

ولا نزاع فى أنه، من جهة الحق والقانون، لم يكن للدائنين الأجانب أن يطلبوا إنشاء هيئة مالية رسمية داخل الحكومة بتلك السلطة، ولكن فكرة الطمع والاستعمار، وغلبة القوى على الضعيف، هى التى أملت مشروع صندوق الدين لاستغلال موارد البلاد، وفرض الوصاية الأوروبية على ماليتها.

وفى ٧ مايو سنة ١٨٧٦، أصدر الخديو مرسومًا ثانيًا بتحويل ديون الحكومة ودين الدائرة السنية والديون السائرة إلى دين واحد، سمى (الدين الموحد) قدره ٩١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إنجليزى، بفائدة سبعة فى المائة، يسدد فى ٦٥ سنة، والغرض من هذا المرسوم توحيد الديون وتأمين الدائنين على استيفاء ديونهم.

ولكى يطمئن الدائنون على حسن إدارة وزارة المالية، أصدر الخديو فى ١١ مايو سنة ١٨٧٦ مرسومًا ثالثا بإنشاء (مجلس أعلى للمالية)، مؤلف من عشرة أعضاء، خمسة أجانب، وخمسة وطنيين، ومن رئيس يعينه الخديو، ويتألف هذا المجلس من ثلاثة أقسام، القسم الأول يختص بمراقبة خزائن الحكومة، والثانى بمراقبة الإيرادات والمصروفات (وهى غير المراقبة الثنائية التى سيرد الكلام عنها) والثالث بتحقيق الحسابات، ويبدى المجلس - رأية فى ميزانية الحكومة السنوية التى يضعها وزير المالية قبل نهاية كل سنة بثلاثة أشهر، وعين أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإيطالى رئيسا لهذا المجلس!

الرقابة الثنائية البريطانية الفرنسية
على شئون مصر المالية

إن إنشاء صندوق الدين، وإنشاء مجلس أعلى مختلط للمالية، وتوحيد الديون، كل هذه الوسائل، على مافيها من افتيات على سلطة الحكومة، لم تقنع الحكومة البريطانية، ولم تر فيها الكفاية لضمان مصالح الدائنين، فامتنعت عن تعيين مندوب عنها فى صندوق الدين، وجاهدت بأن من الواجب وضع تسوية أخرى لكفالة مصالح الدائنين.

والواقع أن هذا لم يكن غرضها الحقيقى، بل كانت ترمى إلى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلى فى إدارة الحكومة المصرية، ويجعل مصر أكثر خضوعًا للدول الأجنبية فى سياستها وتصرفاتها الداخلية، واتفقت مع فرنسا على خطة موحدة لإكراه إسماعيل على قبول الأوضاع التى يقترحانها، وأهمها فرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية، ووضع السكك الحديدية، وميناء الإسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة.

وتدخل قنصلا إنجلترا وفرنسا للضغط على الخديو وإكراهه على الإذعان، فتردد إسماعيل فى قبول هذه المطالب الجائرة، وقامت فى البلاد حركة استياء شديدة من جورها، ولكن الخديو خشى على مركزه أن تزعزعه مقاومة الدولتين البريطانية والفرنسية، فنزل أخيرًا على إرادتها ورضى بالرقابة الثنائية سنة ١٨٧٦.

الوزارة المختلطة

وأعقب فرض الرقابة الثنائية تأليف (لجنة تحقيق عليا) أوروبية سنة ١٨٧٨ لفحص شئون الحكومة المالية، ثم تعيين وزارة مختلطة فى نفس السنة برياسة نوبار وفيها وزيران أوروبيان أحدهما بريطانى وهو ريفرس ويلسن Rivvers

Wilson وقد تولى وزارة المالية، والثانى فرنسى وهو دى بلينيير De Blig-nieres وقد تولى وزارة الأشغال، فكان تعيين هذه الوزارة إهانة للبلاد وصدمة لشعور الأهلين الذين سموها الوزارة الأوروبية.

النهضة الوطنية والسياسية

فهذا التدخل الأجنبى فى شئون البلاد المالية والسياسية والعدوان على استقلالها وكرامتها كان من الأسباب الجوهرية التى حفزت النفوس إلى التبرم بنظام الحكم، والتخلص من مساوئه، لأن سياسة الحكومة هى التى أفضت إلى هذا العدوان الصارخ.

ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية فى مصر، ووجدت مبادئ جمال الدين الأفغانى وتعاليمه سبيلاً إلى النفوس، فكانت من العوامل الهامة فى ظهور هذه النهضة التى شغلت السنوات الأخيرة من عهد إسماعيل وكانت من أدوار الحركة القومية.

كان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصحف السياسية، وإقبال الناس عليها، فمن الصحف التى كان لجمال الدين يد فى إنشائها أو تحريرها جريدة (مصر) التى ظهرت سنة ١٨٧٧، وهى جريدة أسبوعية لمحررها أديب إسحق ومديرها سليم نقاش وقد أنشأ الاثنان أيضا سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالإسكندرية باسم جريدة (التجارة) وسياسة الصحيفتين وطنية حماسية تجلت فيها تعاليم جمال الدين وروحه وكانت له فى الصحيفتين بعض المقالات يكتبها أو يمليها على تلاميذه وكانت صحيفة (مصر) تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة باسم (المزهر بن وضاح).

وجريدة (مرآة الشرق) وقد تولاها سليم عنحورى ثم إبراهيم اللقانى بإيعاز من جمال الدين الأفغانى.

وجريدة (أبو نضارة) ليعقوب صنوع الذى كان على صلة به.

وكان لهذه الصحف وغيرها فضل كبير فى إنارة البصائر والأفكار وتوجيه

الأنظار إلى العناية بشئون البلاد عامة وتبرم المواطنين بحالتها السياسية والمالية، فكانت من عوامل النهضة السياسية والأدبية فى البلاد.

ومن مآثر جمال الدين الأفغانى ظهور روح اليقظة والمعارضة فى مجلس شورى النواب على يد نواب نفخ فيهم من روحه وعلى رأسهم النائب عبد السلام المويلحى الذى يعد من تلاميذه الأفذاذ. وإنك لتلمس الصلة الروحية بينهما، من الكلمات والعبارات الرائعة التى كان المويلحى يجهر بها فى جلسات مجلس شورى النواب، فإن هذه العبارات هى قبس من روح الحكيم الافغانى.

وقد جاء ذكر النائب المويلحى ضمن تلاميذ جمال الدين ومريديه على لسان سليم العنحورى الأديب السورى حين زار مصر ووصف مكانة جمال الدين بقوله:

«وفى خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطرًا وسما مقامه، لأنه تداخل فى السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية، مثل محمود باشا سامى البارودى الذى نفى أخيرًا مع عرابى إلى جزيرة سيلان، وعبد السلام بك المويلحى النائب المصرى فى دار الندوة، وأخيه إبراهيم (المويلحى) كاتب الضابطة، وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره، ويعلون بين الناس مناره، من أرباب الأقلام، مثل الشيخ محمد عبده، وإبراهيم اللقانى، وعلى بك مظهر، والشاعر الزرقانى، وأبى الوفاء القونى فى مصر (القاهرة)، وسليم النقاش، وأديب اسحق، وعبد الله نديم فى الإسكندرية».

* * *

دخلت الحياة النيابية منذ سنة ١٨٧٦ دورًا جديدًا امتاز بظهور روح النهضة والمعارضة فى نفوس أعضاء مجلس شورى النواب وبدت هذه الروح فى مناقشاتهم وأعمالهم ومواقفهم، وأخذت مظاهر الحياة والنشاط ترتسم فى أفق المجلس بعد أن كان يخيم عليه الخمول والجمود فى الأدوار السابقة.

فلما اجتمع المجلس فى نوفمبر سنة ١٨٧٦ كان جوابه على خطبة العرش مكتوبًا بأسلوب جديد وروح جديدة تختلفان عن عبارات التملق البالغ التى

كانت ترد فى الأجوبة السابقة، وتضاءلت فيه أساليب العبودية للخديو، مما دل على تطور روح المجلس واستشعار النواب بكرامتهم وحقوقهم، ويمتاز الجواب أيضا بإيجاز عباراته وارتقاء أسلوبه بالنسبة لأسلوب الأجوبة السابقة، وهذا ينبىء بتطور الأفكار وتقدم لغة الكتابة والإنشاء.

ويرز فى ميدان النقاش أعضاء أكفاء برهنوا على حصافة فى الرأى وقدرة فى المنطق، وسداد فى المقصد، نذكر منهم على سبيل المثال (لا على سبيل الحصر): محمود العطار، وعبد السلام المويلحى، ومحمد راضى، وعثمان الهرميل، ومحمود سالم، وبدينى الشريعى، وإبراهيم الجيار، وغيرهم.

وقد أصدرت الحكومة مرسومًا فى يناير سنة ١٨٧٩ قضى بأن القوانين المتعلقة بالشئون المالية تصدر بعد تقريرها فى مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو، وأغفل مجلس شورى النواب، ففى جلسة تالية لصدور هذا المرسوم اعترض النائبان محمود العطار وعبد السلام المويلحى على إغفال المجلس، ومطالبا بعرض القوانين المالية عليه ووجوب إقراره لها، ووافق النواب على هذا الاعتراض، فحدثت أزمة بين المجلس والحكومة، وازداد نفور الأمة من وزارة (نوبار) واتسعت حركة المعارضة ضدها داخل المجلس وخارجه.

وعطلت الوزارة جريدة (التجارة) لأديب اسحق وجريدة (الوطن) لميخائيل عبد السيد خمسة عشر يوما لإثارتها الخواطر فى كتاباتها.

ثورة ضباط الجيش – ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩

وفى خلال مدة التعطيل وقعت ثورة ضباط الجيش على وزارة نوبار (١٨ فبراير سنة ١٨٧٩)، وكانت هذه الثورة صدى لشعور المواطنين ضد هذه الوزارة، فقد أسرفت فى ممالأة الدائنين الأجانب وعينت كثيرًا من الأوروبيين فى المناصب الهامة للحكومة، وأهدرت حقوق الموظفين الوطنيين وعزلت طائفة منهم، وأحالت إلى الاستيداع ٢٥٠٠ من ضباط الجيش بحجة الحاجة إلى ضغط المصروفات.

فثار الضباط واحتشدوا يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ واتجهوا إلى وزارة المالية، واتصلوا بطائفة من أعضاء مجلس شورى النواب ليشاركوهم فى مظاهرتهم، واكتفى بعضهم بالسير فى موكب المظاهرة، راكبين حميرهم، فكان هذا العمل اشتراكا من هيئة المجلس فى المظاهرة، واعتدى الثائرون على (نوبار) بالضرب، وطرحوه أرضا، كما اعتدوا على (ريفرس ويلسن) وزير المالية، واقتحموا وزارة المالية، وحبسوا بإحدى غرفها نوبار وريفرس ويلسن ورياض، وصار الموظفون الأجانب الذين بالوزارة تحت رحمة الثوار.

زلزلت هذه الثورة مركز وزارة نوبار، فاستقالت فى اليوم التالى، وتألفت وزارة جديدة برئاسة توفيق بن إسماعيل وفيها الوزيران الأوربيان ريفرس ويلسن ودى بلينيير، وخولا حق (الفيتو) أى وقف أى قرار لمجلس الوزراء لا يرضيان به، فاستمرت الخواطر ثائرة.

وسلكت وزارة توفيق إزاء مجلس شورى النواب مسلك العنت والإرهاق فاستصدرت من إسماعيل مرسوما بانفضاضه بحجة انتهاء مدته، ولم تكن قد انتهت، فرفض المجلس الإذعان لهذا القرار وكتب النواب عريضة بذلك إلى الخديو إسماعيل.

الجمعية الوطنية – أبريل سنة ١٨٧٩

ولم يكتفوا بذلك بل تشاوروا فيما يجب عمله تجاه هذه الأزمة، واشركوا معهم فى التشاور العلماء وأصحاب الرأى والأعيان والتجار، واجتمعوا جميعا بدار السيد على البكرى نقيب الأشراف، ثم فى منزل إسماعيل راغب وزير المالية السابق ورئيس مجلس شورى النواب فى أول إنشائه، وعقدوا بداره (جمعية وطنية) واتفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم، ويتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به المشروع الذى وضعه ريفرس ويلسن وزير المالية والذى كان أساسه جعل مصر فى حالة عجز عن سداد ديونها، أى فى حالة إفلاس، وجعلوا أساس مشروعهم اعتبار إيرادات الحكومة كافية للوفاء بمصروفاتها بما فيها أقساط الديون، وذلك بكفالتهم، وتأليف وزارة وطنية، وتعديل نظام مجلس

شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية فى أوروبا وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه.

وقد وقع على بيان الجمعية الوطنية ستون من أعضاء مجلس شورى النواب، وستون من العلماء والهيئات الدينية، وفى مقدمتهم شيخ الإسلام، وبطريرك الأقباط، وحاخام الإسرائليين، و ٤٢ من الأعيان، و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين، و ٩٣ من ضباط الجيش.

وقدم وفد من الأحرار (اللائحة الوطنية) كما سموها إلى الخديو إسماعيل. فلم ير بدًّا من الاستجابة لمطالبهم، وعهد إلى محمد شريف تأليف الوزارة الجديدة، فألفها خالية من الوزيرين الأجنبيين، وبدا من خطاب إسماعيل إلى شريف أنه يقر اللائحة الوطنية، وقرر فيه مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب، وبذلك اكتملت سلطة هذا المجلس بتقرير هذا المبدأ الذى هو حجر الزاوية فى النظام الدستورى.

ولكن الدول الأوروبية وقفت للوزارة الوطنية بالمرصاد وسعت جهدها فى خلع إسماعيل، ووافقتها حكومة الاستانة على مؤامرتها، وأعلنت خلعه فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩.

وتولى توفيق مسند الخديوية، وكان أبرز عمل له أن أقصى شريف عن الوزارة وعطل الحياة النيابية زهاء سنتين حتى قامت الثورة العرابية.

الفصل الثالث

جمال الدين والثورة العرابية

لم يكن جمال الدين الأفغانى مناصرًا لإسماعيل، بل كان ينقم منه استبداده وإسرافه، وتمكينه الدول الاستعمارية من مرافق البلاد وحقوقها، وكان يتوسم الخير فى توفيق، إذ رآه وهو ولى للعهد ميالاً إلى الشورى، ينتقد سياسة أبيه وإسرافه، وقد اجتمعا فى محفل الماسونية، وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى، وقال مرة لجمال الدين على مسمع من الحاضرين «إنك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد».

ولكن توفيق لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم فى يونية سنة ١٨٧٩، فقد بدا عليه الإنحراف عن الشورى، واستمع لوشايات رسل الاستعمار الأوروبى، وفى مقدمتهم قنصل إنجلترا العام فى مصر، إذ كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة إلى الحرية والدستور، فغيروا عليه قلب الخديو، وأوعزوا إليه إخراجه من القطر المصرى، وكان توفيق من الضعف والهوان بحيث لا يخالف أمر رسل الاستعمار الأوروبى.

جمال الدين والخديو توفيق

ذكر الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته للسيد جمال الدين أن أول أثر ظهر لجمال الدين فى ميدان السياسة هو الحركة التى هبت فى أواخر أيام الخديو إسماعيل باشا وآلت إلى خلعه من الخديوية، وكان للسيد اليد الطولى فيها، ولما جلس توفيق باشا على كرسى مصر شكر لجمال الدين مساعيه، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية فى حقه، وجاء من دس إلى الخديو الجديد أن

السيد لن يقف عند هذا الحد وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية وبإقامة حكم جمهورى وما أشبه ذلك[١]».

وفى خاطرات جمال الدين الأفغانى أن الخديو توفيق قال لجمال الدين: «مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقون من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة» فقال جمال الدين مجاوبًا «ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل، فالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به لسموكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم» هذا أهم ما جرى فى هذه المقابلة التى كان فيها الخديو غير راض، وأسر فى نفسه البطش بجمال الدين، ولكن لم يظهر له شيئا من ذلك[٢].

نفى جمال الدين من مصر

أصدر توفيق أمره بنفى جمال الدين، وكان نفيه بقرار من مجلس الوزراء منعقدًا برئاسة الخديو، وكان تنفيذه غاية فى القسوة والغدر، إذ قبض عليه ليلة الأحد السادس من رمضان سنة ١٢٩٦ - ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩، وهو ذاهب إلى بيته، هو وخادمه الأمين (عارف أبو تراب)، وحجز فى الضبطية، ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه، وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس، وأنزل منها إلى باخرة[٣] أقلته إلى الهند، وسارت به إلى بمباى.

---

(١) حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى Lothrops Stwdard تعريب عجاج نويهض تعليقات مستفيضة للأمير شكيب أرسلان ص ٢٠١.

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى باشا ص ٤٦.

(٣) كان نقله إلى الباخرة فى صبيحة الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ - ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩.

ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمى من إدارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ (٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩) ذكرت فيه نفى السيد بعبارات جارحة ملؤها الكذب والإفتراء، مما لا يجدر بحكومة تشعر بشىء من الكرامة والحياء أن تسف إليه، فقد نسبت إليه السعى فى الأرض بالفساد، ويعلم الله أنه لم يكن يسعى إلا إلى يقظة الأمة، وتحريرها من ربقة الذل والعبودية، وذكرت عنه أنه «رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا». وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية.

ومن المؤلم حقًا أن يتقرر نفى جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد، ومن وزرائها محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف وقتئذ، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره، فتأمل كيف يتنكر الأنصار والأصدقاء لأستاذهم، وإلى أى حد يضيع الوفاء بين الناس!!، ولا ندرى كيف أساغ البارودى نفى السيد جمال الدين واشترك فى احتمال تبعته، وإذا لم يكن موافقًا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجًا واستنكارًا؟ لاشك أن موقف البارودى فى هذه الحادثة لا يمكن تسويغه أو الدفاع عنه بأى حال.

جمال الدين أبو الثورة العرابية

نفى جمال الدين من مصر، على أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها فى المجتمع المصرى، وبقيت النفوس ثائرة تتطلع إلى إصلاح نظام الحكم، وإقامته على دعائم الحرية والشورى.

فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه، وحسبك أن خطيب الثورة العرابية عبد الله نديم كان تلميذًا له. ومحمود سامى البارودى رئيس وزارة الثورة كان من أصدقائه ومريديه، والشيخ محمد عبده هو تلميذه الأكبر، والثورة فى ذاتها هى استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين الفضل الكبير فى ظهورها على

عهد إسماعيل، ولو بقى فى مصر حين نشوب الثورة لكان جائزًا أن يمدها بآرائه الحكيمة، وتجاربه الرشيدة، فلا يغلب عليها الخطل والشطط، ولكن شاءت الأقدار، والدسائس الإنجليزية، أن ينفى السيد من مصر، وهى أحوج ما تكون إلى الانتفاع بحكمته وصدق نظره فى الأمور.

أقام المترجم بحيدر أباد الدكن، وهناك كتب رسالته فى (الرد على الدهريين) وألزمته الحكومة البريطانية بالبقاء فى الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية.

الفصل الرابع

عمله فى أوروبا

العروة الوثقى

أخفقت الثورة العرابية، واحتل الإنجليز مصر، فسمحوا للسيد بالذهاب إلى أى بلد، فاختار الشخوص إلى أوروبا، فقصد إليها سنة ١٨٨٣، وتعلم الفرنسية وهو كبير وأول مدينة وردها مدينة لندن، أقام بها أياما معدودات، ثم انتقل إلى باريس، وكان تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده منفيا فى بيروت عقب إخماد الثورة، فاستدعاه إلى باريس، فوافاه إليها.

جمعية العروة الوثقى

وهناك أصدر جريدة (العروة الوثقى)، وقد سميت باسم الجمعية التى أنشأتها، وهى جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن، والأخذ بأسباب الحياة والنهضة، ومجاهدة الاستعمار، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطانى، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامى وكبرائه، وكانت الدعوة إلى اتحاد الشرقيين تتردد وتتوالى فى معظم مداولاتها، إذ رأى الحكيمان أن تفرق الكلمة هو الثغرة الأولى التى ينفذ منها الاستعمار لتحقيق أهدافه فى البلاد الشرقية.

جريدة العروة الوثقى

وهذه الجمعية هى التى عهدت إلى السيد بإصدار تلك الجريدة لتكون لسان حالها، فكان مديرًا لسياستها، والشيخ محمد عبده رئيسًا لتحريرها.

واشتركا معًا فى تحريرها، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين، وقلم الأستاذ الإمام، فجاءت آيات بينات فى سمو المعانى، وقوة الروح، وبلاغة العبارة، وهى أشبه ما تكون بالخطب النارية، تستثير الشجاعة فى نفوس قارئها، وتدانى فى روحها وقوة تأثيرها أسلوب الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى خطبه الحماسية المنشورة فى (نهج البلاغة)، ولا غرو فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة الحسينية العلوية، فكأن روح الإمام على تمثلت فيه، وتجلى أثرها فيما يكتبه أو يمليه.

هى رد فعل للاحتلال

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول: «إن الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد ليس لى فيها فكرة واحدة، والعبارة كلها لى ليس للسيد فيها كلمة واحدة».

وقد جمع الأستاذ عبد القادر المغربى أحد تلاميذ الحكيم الأفغانى النسخ الأصلية لما ظهر من جريدة (العروة الوثقى) فكانت ثمانية عشر عددًا وذكر أن هذه صورة ما كان مكتوبًا على رأس كل عدد منها:

العروة الوثقى

لا انفصام لها

جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

مدير السياسة	المحرر الأول
جمال الدين الحسينى الأفغانى	الشيخ محمد عبده

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية
قد عينت أجرة البزيد خمسة فرنكات
فى السنة لمن تسمح بها نفسه[١]
من شاء أن يبعث إلينا بتحارير
أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة
نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر
مهم فليرسلها إلى إدارة الجريدة
بهذا العنوان:

6 Rue Hartel, à Paris

وقد صدر من الجريدة ثمانية عشر عددًا، ظهر العدد الأول منها فى يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سة ١٨٨٤.

أى قبل أن ينقضى عامان على الاحتلال البريطانى.. ولقد كانت وقائع الثورة العرابية، والمؤامرات التى دبرتها السياسة الإنجليزية لإحباطها. واحتلال إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢. وتغلغل النفوذ البريطانى فى شئون الحكومة كافة، ومحاربة الإنجليز للروح الوطنية فى مصر، كل ذلك كان له أثره فى ظهور جريدة العروة الوثقى، بحيث يصح القول بأن صدورها كان رد فعل للاحتلال الأجنبى، وثورة عليه، وكانت كتاباتها دعوة صادقة للجهاد ضد الاستعمار، موجهة إلى الأمة المصرية وإلى الشرقيين كافة، لأنهم جميعًا هدف للمطامع الاستعمارية.

فاتحة العدد الأول

وفيما يلى فاتحة العدد الأول من جريدة (العروة الوثقى).

---

(١) جمال الدين الأفغانى – ذكريات وأحاديث – لعبدالقادر المغربى ص١٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير». هذا ما تمده العناية الإلهية من قول الحق، متعلقًا بأحوال الشرق، وعلى الله المتكل، فى نجاح العمل.

«خفيت مذاهب الطامعين أزمانًا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حدًا لا تحتمله النفوس البشرية.

«ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويغرى به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير، فى النزر اليسير، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فإن تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة، ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها، فلم يجز فى زمن من الأزمان إمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال.

«والذى يحكم به العقل الصريح، ويشهد به سير الاجتماع الإنسانى من يوم علم تاريخه إلى اليوم، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون إلى راحة لا تدوم، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها، فزعت إلى استبقاء الموجود، ورد المفقود، ولم تجد بدًا من طلب النجاة من أى سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية، وهى ما تكون بالتئام أفرادها، والتحام آحادها، وأن الإلهام الإلهى والإحساس الفطرى والتعليم الشرعى، ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شىء عليها.

«إن النفوس الإنسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت إذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان، فإذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمست خلاصها، ولن تعدم عند الطلب رشادًا.

«ربما تخطىء مرة. فتكون عليها الدائرة، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثله، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة، وإن الحركة التى تبعث لدفع ما لا يطاق إذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها، لا يكفى فى توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذاك القيم وإهلاك ذاك المدبر، فإن العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها، فإن ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالة علته ورفع أسبابه.

«جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الأخلاق والعادات والمشارب، وان لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به، لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل إليه، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبًا، تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب.

«إن مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر، الزم من التحزب للجنس والمذهب، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك فى طلب المنفعة.

«أبعد هذا يأخذنا العجب إذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق فى هذه الأيام؟ كل يطلب خلاصًا ويبتغى نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والأفن[1]، وأن العقلاء فى كثير من أصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل.

(١) ضعف الرأى.

«بلى، كان هذا أمرًا ينتظره المستبصر وإن عمى عنه الطامع، وليس فى الإمكان إقناع الطامعين بالبرهان، ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أنبائه بل ما يجرى به القضاء الإلهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون.

«بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته، خصوصًا فى المسلمين، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورًا، وذوو حقوق فى الإمرة حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعزاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأصحاء أضحوا سقامًا، وأسود تحولت أنعامًا، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين فى أطماعهم، خصوصًا من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها.

«حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، وألزموها ما ليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع، فكانت الحركة العرابية العشواء، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين، فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا.

«لم تكد تخمد تلك الحركة فى بادئ النظر حتى خلفتها حركة أخرى، وفتح باب كان مسدودًا، وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى فى نفوس المسلمين، بل هى بقية آمالهم، ولا ندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة، وربما يوجد من يدرى أن مسببيها فى حيرة من تلافيها، نعم إنهم غرسوا غرسًا إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلًا، ويطعمون منه زقومًا. لا جرم هذه هى العواقب التى لا محيص عنها لمن يغالى فى طمعه، ويغلغل فى حرصه، ولو أنهم تركوا الأمر من ذلك الوقت لأربابه، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته، أو اقتناء فائدته، لحفظوا بذلك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة، بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم.

«غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء، وهو أنفذ عواملهم وأقتلها، وما علموا أنه وان كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين، فإن بلاء الجور إذا حل بشطر من الأمة وعوفى منه باقيها، كانت سلامة البعض تعزية للمصابين، وحجاب غفلة للسالمين، يحول بينهم وبين الإحساس بما أصاب إخوانهم، أما إذا عم الضر، فلا محالة يحيط بهم الضجر، ويعز عليهم الصبر، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم، ولا خير فيه لغيرهم.

«ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرًا لموقعها من الممالك الإسلامية، ولأنها باب الحرمين الشريفين، فإن كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية.

«إن الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين، وتكلمت به قلوبهم، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارا، وما هذا بغريب على المسلمين، فإن رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة. ومادام القرآن يتلى بينهم وفى آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم.

«إن الفجيعة بمصر حركت أشجانًا كانت كامنة، وجددت أحزانًا لم تكن فى الحسبان، وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم، وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرًا، بل نفيرًا عامًّا، بل يكون صاخة تخرق مسامع من أصمه الطمع.

«إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له فى فتوحاته إلا المداهاة، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة، يظهر بصورة مختلفة الألوان، متقاربة الأشكال، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم، ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن، ومخلص الحكومات عن غوائل العصيان، وواقى مصالح

المغلوبين، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته فى سيره هذا أن لا يأتى من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر، وكر النظر، وأن يتماشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها إذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم، وهو يعلم أن الكلمة إذا اتحدت لا تعوزها الوسائط، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وأن المغيظ لا يبالى فى الإيقاع بمناوئه أسلم أو عطب، فهو يضر ليضر، وإن مسه الضر.

«إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند إلى مكة، ومن مكة إلى مصر، والكرير[1] الممتد من مصر إلى مكة ومن مكة إلى الهند، وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم، المسترسلين فى جفوتهم.

«إن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها، فأيقظت أفكار العقلاء، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمورهم، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه، فتقاربوا فى النظر، وتواصلوا فى طلب الحق، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف، وإن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم، وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم، ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها، وإلى الله عاقبة الأمور.

«تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار. خصوصا البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع، لا ينون فى السعى، ولا يقصرون فى الجهد، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حى على حياته.

«ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة

---

(١) الكرير صوت من الصدر كصوت المختنق.

ويحامون عنها من أهالى أوروبا، وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها، وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين، ومناط اليقين، وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام، يجتمع إليه الشرقى والغربى، ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير، والغنى والفقير، كانت أفضل مدينة تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبث إلى سائر الجهات، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

«ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر، وأقرب إلى الظفر، يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق، ودعوة صدق، ودعوة صـدق، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم، بين من خفى عنه شأنهم من إخوانهم، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم، وهو اللسان العربى، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية، تنبيها للغافل، وتذكيرًا للذاهل، فرغبوا إلى (السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى) أن ينشىء تلك الجريدة، بحيث تتبع مشربهم، وتذهب مذهبهم، فلبى رغبتهم، بل أدى حقًا واجبًا عليه لدينه ووطنه، وكلف (الشيخ محمد عبده) أن يكون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثانى على الامتثال، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال».

احتوت المقالة كما ترى نداء قويًا للأمم الشرقية أن يتحد أبنـاؤها لـدرء الأخطار المحدقة بهم المهددة لكيانهم، وفيها دعوة للمواطنين فى كل أمة شرقية أن يتكتلوا وينبذوا الفرقة والانقسام. ويقاوموا الاستعمار بكل مـا لديهم من حول وقوة، وثبات وإيمان. وفيها استنكار للاحتلال البريطانى الذى نكبت به مصر سنة ١٨٨٢، وإشادة بمركز مصر فى الشرق ودعوة صادقة لتحريرها من نير الاحتلال، وتحذير المصريين من أن يثقوا بوعود الإنجليز الكاذبة.

منهج الجريدة

وفى العدد نفسه مقالة عن منهج الجريدة. جاء فيها:

«سنأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت.

«ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشىء العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط، والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتارة فيها الخريت[١]، وضل المرشد، حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة، والمدهشات القاتلة.

«وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين، ولبست عليهم مسالك الرشد، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات، وأن العلة بلغت حدها.

«وتحاول أشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب وهو تحت الجناح، ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة.

«وإن الظهور فى مظهر القوة لرفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها[٢] ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط، وسلوك

---

(١) الخريت الدليل الحاذق الذى يهتدى إلى أخرات الأرض أى مضايقها وطرقها الخفية.

(٢) يريد روسيا.

المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجأ للشرقى فى بدايته، أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها.

«وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فقد التكافؤ لم تكن الروابط إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف، وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة، المدبج بأشكال المجاملة، شفافًا ينم عما وراءه، وتنقب عن المسالك الدقيقة، التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات.

«وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عمومًا والمسلمون خصوصًا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم، ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون.

«ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم، مع اختيار الصادق، وانتقاء الثابت.

«وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينها، والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

«ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها، والحاملين عليها، لا تظهر إذا أدلجوا، ولا تنجد إذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

«وترسل إلى الذين نعرف أسماءهم مجانًا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير، والغنى والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده والله الموفق».

* * *

اتخذت العروة الوثقى شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة، ودعوتهم إلى مقاومـة الاستعمار الأوروبى، والجهـاد فى سبيل الحرية والاستقلال.

منع العروة الوثقى
من دخول مصر والهند

وقد ذاع شأنها فى العالم الإسلامى، وأقبل عليها الناس فى مختلف الأقطار، ولكن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند، وشددت فى مطاردتها واضطهاد من يقرؤها، بل كانت تتوجس منها خيفة وتعد العدة لمصادرتها قبل ظهورها.

وفى ذلـك تقول فى عـددها الخـامس الصادر بتـاريخ ٤ جمـادى الآخـرة سنة ١٣٠١ – ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤.

«لو نادينا الغافلين أن انتبهوا، والنائمين أن استيقظوا، واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم وأوهامهم أن التفتوا، ولو أنذرنا أهل مصر بأن الإنكليز لـو ثبتت أقدامهم فى ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم، بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم، لقال الناس إننا نبالغ فى الإنذار ونغرق فى التحذير، ولو بينا لهم أن الإنجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء، والأحفاد بجرائم الأجداد، ويطالبون الذرارى بدفائن أسلافهم، وإن لم يكن للخلف علم بما ترك السلف، لعدوا هذا البيان منا شططًا فى المقال وميلاً عن الاعتدال...» إلى أن قالت الجريدة: «فلا نذكر ولا نبين. ولا نحكى ولا نقص. ولكن نعرض عليهم نموذجًا من المعاملة لعله يكـون للمتبصرين مـرآة تحكى ما يغيب عنهم من لوازم السلطة الإنكليزية. عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه، فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الإنكليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسـة الإنكليز ونفوذها فى البلاد الشرقية، ولجوا فى إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة

لمنع الجريدة من الدخول فى البلاد الهندية والبلاد المصرية، كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا.

إلى أن قالت: «ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى إذا دعا الحال، فإن أنصار الحق كثيرون».

ولم تطق بريطانيا صبرًا على جريدة العروة الوثقى وعملت على منع دخولها فى مصر والهند، فأوعزت إلى الحكومة المصرية بمصادرتها وتغريم كل من توجد عنده من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيهًا، قالت الجريدة فى هذا الصدد فى عددها التاسع الصادر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢ (٢٠ مايو سنة ١٨٨٤) ما يلى:

«انعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة[١] واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضيًا عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية، وتراقب جولاتها فى تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة فى ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهًا (وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنكليز فى مصر)[٢].

«أما نحن فلا نظن أحدًا من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلًا إلى مثل هذا الحكم، ولا يختلج فى صدورنا أن مصريًا من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبًا من العدل.

«هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سعى بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح فى عمرو،

(١) كانت الوزارة برياسة نوبار.

(٢) كما جاء فى (العروة الوثقى) عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤.

فإن المقصد أعلى وأرفع من هـذا، وإنما عملهـا سكب مياه النصـح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عمومًا على الصفاء والوداد، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب.

«هذا منهاج (العروة الوثقى) علمه كل مطلع على مـا نشر فيهـا من يوم نشأتها إلى الآن. فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيًّا مسلمًا أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره، ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شىء من الاختيار، والمدير لرحى الفخر عليهم هم عمـال الإنجليز.

«ولا نريد أن نقول للإنكليز إنهم ظلموا فى هذا الحكم فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشـره الجرائـد الوطنيـة والأجنبية من كشف مساتيرهم، وبيان الرزايا التى أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم[١]. لأنهم الإنكليز الذين إذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند وإقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه إلى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله إليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير إلى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو إليه ويسأله: هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فإذا قال نعم. قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا، فإذا أجابه بأنى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا إلا لأنه كتاب دينى، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه فى الآية أو الحديث، فإن مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بإرسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه إلى مطبعة من المطابع ليطبـع وينشر – بعثت به الحكومة إلى جزيرة (أندومان)[٢] نفيًـا مؤبدًا، ولـو رأيت الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين.

---

(١) الحلول بمعنى الاحتلال.

(٢) جزيرة بالمحيط الهندى.

«فدولة الإنكليز التى تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم، وما يمكن أن يهجس من حديث نفوسهم، لا ريب أنها تعد وجود لفظ الإسلام فى جريدة كافيًا لمنعها عن الدخول إلى بلاد لها فيها قدم ثابت، أو تسعى فى تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصًا علق عليه هذا الاسم من أى جنس كان، فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلن لها أن هم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة، وذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى.

«بلغنا أن بعضًا من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولى الحميم، ويقابل ثناءه بالذم، ومدحه بالقدح، وإحسانه بالإساءة، ويواجه نصيحته بالظنة. ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا إغراء عدو، وإنما هو لشبهة حجبت نظره عن إدراك الحقيقة، فإذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع إلى الندم على ما صدر منه، وكانت له مثابة إلى الحق وركون إلى الصواب.

«لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع (العروة الوثقى) عن دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع، فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين، وإنما منشؤه حكومة إنجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها».

تقصد الشرقيين عامة
لا المسلمين وحدهم

وكانت دعوة (العروة الوثقى) موجهة إلى الشرقيين عامة لا المسلمين وحدهم، وفى ذلك يقول جمال الدين فى عدد ١٨ رجب سنة ١٣٠١ هـ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤): «لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانًا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى

أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما يخيل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا من تطاول الأجانب عليهم والإفساد فى بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها».

الفصل الخامس

نماذج من مقالات العروة الوثقى وأخبارها

نقتطف فيما يلى نماذج من المقالات والأخبار المنشورة بجريدة (العروة الوثقى) وسنضع عناوين وهوامش لبعض هذه المقتطفات تيسيرًا للتعريف بموضوعاتها وملابساتها.

الاستعمار فى مصر

فى العدد الأول الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ (٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان (مصر) حملت فيها على سياسة بريطانيا الاستعمارية فى وادى النيل، ووصفت البؤس الذى عانته البلاد من الاحتلال وقالت ضمن ما قالت:

«تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها إلى أراضى البلاد الغربية وتوارد إليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساغ فأثرى فى مغانيها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد أهلا خيرًا من أهله وسكنًا خيرًا من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن.

«وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت فى كل أحوالها نوع ما عليه

الممالك الأوروبية العظيمة، وكأن المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكمًا ربما لم يكن بعيدًا من الواقع أن عاصمتها لابد أن تصير فى وقت قريب أو بعيد كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمرًا مقررًا فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر. غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته، فعثر العاقل وفرط المالك وأعثر المعجب وتهور الغبى وخار الأفين[1]. فنقرب البعيد وبعد القريب، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا فى حواشى طوامير[2] الأوهام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«الحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف، ففتحت للدسائس أبواب. وأنساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتن.

«قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت فى اعادة شأنها الأول إلى رأى قويم وعزم ثابت ووازع قوى تدين لسطوته النفوس وإن من ذوى الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد إليه لكن تحكم طمع وأخطأ ظن فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة.

«أشفقت دولة الإنكليز على طريق الهند كما يقال أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فى مصر من فرائض ذمتها، فكان التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانه، وعم بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد إلا مسه ضرمه[3] ما خلا أشخاصًا قلائل، وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

«أليست المالية هى مرمى أنظار دول أوروبا وما وضع نظام فى البلاد

(١) أفن أفنا: ضعف رأيه فهو أفين ومأفون.
(٢) الطومار: الصحيفة وجمعها طوامير.
(٣) الضرم: اللهب.

ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية، اليوم رزئت بالنقص فى الإيراد وحملت من تعويضات متالف الحرب[١] أربعة ملايين من الجنيهات ورميت بنفقات جيش الحلول[٢] وحرب السودان ومصاريف أخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة.

«عقد العزم على إلغاء الجيش الوطنى وهو قوة البلاد وبه فخارها وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم عسكر مصرى وقصر الجهد عن مجاراة محمد على وإبراهيم اللذين دوخا كثيرًا من الأقطار بجنود مصرية.

«وأسفا على حالة الأهالى بعد هذا، حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحكومـة وما منهم أحـد إلا ويتبعه عـائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل لكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة، ألم يحس هؤلاء ضر الفقر ألم يعضهم ناب الجوع ألم يهتك مستورهم؟ ألم يضق ذرعهم ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة عراة من أكسية المسرة؟ إن لم يكن كل هذا فقد كان جله وإن صدى أنينهم يتلى فى صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون حتى لا يجد وطنى فى البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنكليزى تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو فى البلاد الهندية.

«اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم وحكموا

---

(١) هى التعويضات التى ألزمت بها مصر عقب الاحتلال البريطانى بدعوى أنها مقابل الخسائر والأضرار التى لحقت بالجاليات الأجنبية فى حوادث سنة ١٨٨٢ وخاصة مذبحة الإسكندرية فى ١٠ يونيه سنة ١٨٨٢ وضرب الإسكندرية بقنابل الأسطول البريطانى فى «يوليه» من ذلك العام. ومع أن المسئول عن هذه الخسائر هو الحكومة البريطانية لأنها هى التى أحدثتها. ووقعت فيها. فإن مصر قد احتملت عواقبها وتعويضاتها الجسيمة. وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيه.

(٢) جيش الاحتلال.

أهواءهم فى أداء وظائفهم فخبطوا وخلطوا، فعمت السجون بأعيان الرعية ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمراتٍ كسبهم وحدث نوع من الحكم المطلق عزيزِ المثال بعث عليهم عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولبسوا شيعًا وأذيقَ بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

«غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية فى الإدارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة، فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة وسرى التهاون إلى الدوائر العليا وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص وكثر قطع الطرق فى كل ناحية وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية، وبدت للناس شئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم وإشفاقهم من الضياع على رءوس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة فى رأس المال من قبيل آخر واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالها التيفوس وإلى ما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التى ألفوها، فعميت عليهم السبل وضاقت بهم المسالك ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلًا، ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها وانحطت أسعار الحاصلات لارتباك الأحوال إلى حد ما كان يسمع إلا فى القصص وروايات القدماء. ومطالب الحكومة فى ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الأغذاذ فى اقتضائها، فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدى ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبًا وسلبًا، باع الفلاح أثاث بيته وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه بعدما ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم.

«وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وإن ضعفت واتباع بواطل التهم وإن بعدت أو استحالت حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه وبلغ منها مبلغه، فلا ترى مارًا بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده إلى السجن أو يقتضى منه فدا، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة وفى كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا؟.

«هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى، هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الألوان بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله، أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسميه ضيقًا وعناءً وتمنيهم بالإنقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها.

«أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت بلاده من نحو عشرين شهرًا، كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شئونها، نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها وإقامة جسورها وتكثير جداولها وتقوية مواد الخصب فيها حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا أو روضة من رياض الآخرة، أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون.

«فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذى لا يمثله الخاطر فى وقتنا الحاضر ولا يكفى للبدء فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فإن الدولة التى تولت إصلاح الشئون المصرية فى هذه الأيام دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة واستولت عليها من مدة أربعين سنة ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى، فلينتظر إخواننا المصريون فإنا معهم من المنتظرين».

انجلترا والمسألة المصرية

وفى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ كتبت مقالة عن التواء السياسة البريطانية، ختمتها بأن الحل الوحيد للمسألة المصرية لا يكون إلا على أيدى أهلها، قالت:

«إن المسألة المصرية صبغت فى إنكلترا عدة صبغات من يوم نشأتها، وكلما عرضت على العقول فى لون خيل لها أنه أجود ما فى الدن، حتى إذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد وهى فى انتقالاتها هذه لا تزداد إلا أشكالا ولا تزيد إنكلترا فى إنهائها إلا ارتباكا.

«كان يود مستر (غلادستون)[1] أن ينهج فى سياسته منهج سلفائه من الإنجليز يحبو إلى مقصده بالأناة والتؤدة ويلتوى فى مسيره إلى معاطف متخالفة ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة ولا يسوغه الحذق حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتفى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهد (بيكونسفيلد) من أنه لا يميل إلى الفتوحات وهمه البعد بإنكلترا عن المداخلات فى الأمور الأجنبية بالقوة الحربية، إلا أن الحوادث المصرية ألجأته إلى العدول عن مشربه والتطور بغير طوره، فتضاربت آراؤه وتردد فى أعماله وسار سيرة المتخبط ونشأ من طمعه فى السياسة وتوعر السبل على حكومته فى بلوغ ما تريد وحدث النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن فى حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى والاستقالة من المنصب وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته فى قلوب أحزابه، وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقا للسعى فى إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كرسى الوزارة.

«الذى أباح لمستر (غلادستون) أن يركب غير طريقه ويتداخل فى مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحة وتخليصها من خلل الفوضى، ومن إنكلترا أن تتولى إغاثتها مما وقعت فيه فمد يده لوضع

---

(١) رئيس الوزراء البريطانية الذى وقع الاحتلال فى عهدها.

قواعد العدالة وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن إلى البلاد، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابى إسكندرية والحلول فى ثكن القاهرة، فيكون قد كسب أجرًا أو نال ملكًا جديدًا أو حفظ مصلحة مهمة بأعمال خفيفة ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة، ولكن من الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية.

« تتابعت الفتن وعلا لياقا[1] حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال فاضطر لسوق العساكر ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التى انتصر لها ولم يكف محمد أحمد (المهدى) عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دفنة بهذه الصدمات المتتالية وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيلته ويهاجم الإنكليز مرة ثالثة.

« فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان وحركت الخواطر على الوزارة الغلادستونية وتخوف رئيس الوزراء من عواقب المداولات فى المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام ناظر الجهادية مقامه فى التعبير عن أفكار الوزارة، وفهم من بعض خطاباته أن فى نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها وأن تحل فى شرقى السودان وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية، فقامت الحجة بكلامه هذا لحزب المحافظين ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها فى هذه الأوقات ولم يكن من رأى غلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها وتظهر مشروعها بوجه جلى، ووقع الخلاف بينه وبين ناظر الجهادية وكثير من أعضاء الوزارة على جملة مواضيع فى المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميل غلادستون لمراضاة الأيرلنديين وتجافى بقية الوزراء عن رغبته، وثبت الرئيس فى آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل فى شىء منها، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب فى الوزارة أو فض البرلمان وأكدت قرب ذلك جريدة التيمس وجريدة الديلى نيوز وهى نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة غلادستون فى خطر.

« فإذا انقلبت الوزارة الإنجليزية وخلفتها أخرى من أى حزب كان فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة؟ أقبل الصيف وصعب

(١) اللياق: شعلة النار.

على عساكر الإنجليز أن تأتى بحركات عسكرية فى أطراف السودان الشرقية مدة أشهر، ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبربر والخرطوم، فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأ به التلغراف انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية واجترءوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر، فى هذه المدة وهى غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد (المهدى) ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول، ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الإنكليزية، والبلاد المجاورة للخرطوم فى ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة النوبة ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم أثنا عشر أوروبيا وستون ضابطا مصريا نجوا من عساكر (هكس)[1]، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلى نيوز واعترف مستشار خارجية إنكلترا أن المواصلة بين شندى والخرطوم منقطعة ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر (مارس سنة ١٨٨٤) فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنكليزية فلا نظنه ألا يصدع جدار الهند ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوروبية فى مصر (وليكن كذلك).

«ولا نظن أن دول أوروبا تسمح بضياع مصالحها فى الأقطار المصرية خصوصًا بعض الدول التى كانت تسابق إنكلترا فى وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتدخل الإنكليزى الذى ليست له حدود معروفة ولا غايات معلومة، وإلى هذا تشير جريدة (الطان) الفرنساوية الوزارية حيث تقول: إن إنكلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين يدى أوروبا وتنوه به جريدة (سان بطرسبورج) حيث تقول إن روسيا ليس فى عزمها أن تفتتح بعمل فى مصر فإن انكليزا اعترفت فى جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع فى شىء منها إلا باتفاق أوروبا.

«هذا إذا تمكنت إنكلترا أن تأخذ على نفسها إطفاء الفتن وإجهاد الثورات

---

(١) الجنرال هكس قائد إنجليزى كان يقود جيشًا من المصريين هزم فى موقعة ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ أمام قوات المهدى.

واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، ففى نهايته تطالب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان وهي بين ظفر وانهزام ولا تتجاوز فى حركاتها العسكرية شواطىء البحر فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنكلترا، وإنا نرى وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله أن حفظ حقوق الأوروبيين وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدى أهلها. ويفعل الله ما يشاء».

عبث الإنجليز بالأمن فى مصر
وقالت أيضا فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤

«إنا لله وإنا إليه راجعون لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ورد تلغراف من القاهرة إلى جريدة (استاندر) يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الإنكليزية) إلى اطلاق ألف ومائتين منهم من أرباب الجنايات الخفيفة، وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين، لهذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزناً»[١].

---

(١) فى مارس سنة ١٨٨٤ استقال محمد ثابت باشا وزير الداخلية فى وزارة نوبار احتجاجا على تعيين المستر كليفورد لويد Clifford Llooyd وكيلاً لوزارة الداخلية وتدخله المستمر فى شئون الوزارة، فقبلت استقالته وتولى نوبار نفسه وزارة الداخلية، وظل كليفورد لويد يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها، ومن أمثلة تدخله أنه فى شهر مارس سنة ١٨٨٤ أصدر أمره بالإفراج عن عدد كبير من السجناء فى السجون المختلفة بالمديريات كانوا تحت المحكمة وكثير منهم من كبار الأشقياء وتعللت الوزارة بأن السجون ضاقت بالمسجونين، وكثرت حوادث السطو والسرقات والقتل. وإلى هذه الواقعة أشارت جريدة العروة الوثقى فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ السالف الذكر.

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها

وفى عدد ٢٧ مارس سنة ١٨٨٤، نشرت مقالة عنوانها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)، أوضحت فيها أن علاج أمراض الأمة مسألة تشعبت فيها الآراء، فمن قائل إن الجرائد علاج ناجع فى إصلاح شئونها، وأظهرت الشك فى كفاية الصحف لهذه المهمة، وكيف أن كثيرًا من المتعلمين اتجهوا إلى محاكاة الغربيين فى أساليب الحياة فازدادت تبعية البلاد للمصنوعات الأجنبية، وانتهت المقالة إلى أن الواجب على الأمم الشرقية أن تتبع أصول دينها، ففى اتباعها ما يعيد إليها المجد والمنعة ويرقى بأخلاقها وينهض بحضارتها ويوحد صفوفها، قالت:

«أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورًا، ثم انشق عنها عباء العدم، فإذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام، قوى الأركان، شديد البنيان. عليها سياج من شدة البأس، ويحيطها سور من منعة الهمم، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل، نمت فيها افنان العزة، بعد ما نبتت أصولها، ورسخت جذورها، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى إليها، ونفذت منها الشوكة، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة، فاستغلت آدابها على الآداب، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة إلا فى انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

«وبعد هذا كله وهى بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الأهواء، وانشقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعًا، وانحل ما كان منعقدًا، وانفصمت عرى التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال إلا على أيدى الملتحمين معه بلحمة الأمة، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى

توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر إليه صحوًا، وذبول يظنه المغرور زهوًا، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها، وحدثت فيهم قناعة البهم، والرضا بكل حال، ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفًا، أو يعيد لها مجدًا، عده هوسًا وهذيانًا، أصيب به من ضعف فى المزاج، أو خلل فى البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال، وأورده موارد الهلكة، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته، ونكد معيشته، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالاً من اليأس، فتغل يداه عن العمل، وتقف قدماه عن السعى، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا، وقيمًا على ما أورثوه لأعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدًّا يشرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم.

«نعم رأيت كثيرًا من الأمم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى.

واأسفا ما أصعب الداء، وما أعز الدواء، وما أقل العارفين بطرق العلاج!.

«كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهى لم تفترق إلا لأن كلًّا عكف على شأنه؟ أستغفر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه، نعم ربما التفت إلى كل ما هو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدرى من أى وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها، وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمانًا غير قصير إلى ما ليس من معاليها؟ هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم؟ وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه، خصوصًا بعدما استدبر المقصد، وفى كل خطوة يظن أنه

على مقربة من الحظوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه، المبتهج بأحلامه، وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر؟.

«هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها، وتتناءى أطرافها، وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة، وتوحد آراءها المتخالفة، بعد ما تراسم جهل وران غين، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد، وكل سهل وعر؟ أيم الله إنه لشىء عسير يعيا فى علاجه النطاسى، ويحار فيه الحكيم البصير، هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء. وأسبابه الأولى والعوارض التى طرأت عليه؟ إن كان المرض فى أمة فكيف الوصول إلى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصًا بعينه أن يختار له نوعًا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ وإلا فإن كثيرًا من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر، ثم لا تظهر إلا فى طور آخر، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

«كلا، إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة، وعوارض حياته محصورة، فكيف بمن يريد مداواة علة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها، وإن كان المتشبهون بهم كثيرين، وكما أن المتطبب القاصر فى الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة، لولا مساعدة الاتفاق والصدفة، بل ربما يفضى بالمريض إلى الموت - كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها، ووجوه العلة فيها وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات، وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض، ومكانتها الأولى من الرفعة، ودرجتها الحالية من الضعة، وتدرجها فيما بين المنزلتين. فإن أخطأ طالب إصلاحها فى اكتناه شىء مما ذكرنا تحول الدواء داء، والوجود فناء، فمن له حظ من الكمال الإنسانى، ولم يطمس من قلبه موضع

الإلهام الإلهى، لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علمًا أو عملاً. نعم يكون ذلك من محبى الفخفخة الباطلة، وطلاب العيش فى ظل وظائف ليسوا من حقوقها فى شيء.

«ظن القوم فى هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنها تكفل إنهاض الهمم، وتنبيه الأفكار، وتقويم الأخلاق، كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض؟ فبعدما عم الذهول، واستولت الدهشة على العقول، وقل القارئون والكاتبون. لا نجد لها قارئًا، ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه، بضيق فى التصور، أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافًا، على أن الهمة إذا كانت فى درك الهبوط، فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها، مع قصر المدة، وتدفق سيول الحوادث إن هذا وحقك عزيز.

«ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة فى أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وإخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر، ورضاها بالدون من العيش، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها، بل لمن كان خاضعا لسيادتها، راضخًا لأحكامها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا، حتى تعم المعارف جميع الأفراد فى زمن قريب، ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق، واتحدت الكلمة، واجتمعت القوة، وما أبعد ما يظنون؟ فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر، يحمل الأمة على ما تكره أزمانًا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبًا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة، وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه، فهل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغنى؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

«فإن قالوا: يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات، وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟...

على أنا لو فرضنا مسألة الدهر، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد، والاستزادة منها شيئًا فشيئًا، فهل يصح الحكم بأن هذا التدريج يفيدها فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به، ويمكنه من القيام بإرشاد الباقى من أبناء أمته؟.

واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها!؟ وكيف بذرت بذورها؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت؟ وبأى ماء سقيت، وبأى تربة غذيت؟ ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات، وإن وصل إليها طرف من ذلك، فإنما يكون ظاهرًا من القول لا بناء على الحقيقة، فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها، وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها، يقوم من أفكارهم، ويعدل من أخلاقهم، ويهديهم طرق الرشاد فى إفادة إخوانهم.

لعل الأقرب أن ناقلى تلك العلوم – وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها، وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا، وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم – يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فسادًا.

«ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم، ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها، وما مرنت عليه من عاداتها، فيستعملونه على غير وضعه، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه، وغفلتهم عن آتيه، يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس، والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير مالا يرام إلا من الكبير،

وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه، ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد؟ أو يزيدها على ما بها أضعافاً؟ وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها وإنما هم لها نقلة وحملة.

«فهؤلاء الصادقون إلا من وفق الله منهم بعناية الإلهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه، فيسرع إليه المرض، وينتهى به إلى التلف، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة، يشتتون بقية الجمع، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها، وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين، ويوسعون بذلك الخصاص[1] حتى تعود أبواباً، ويباعدون ما بين الضفاف، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء، وعنوان المصلحين، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

«شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسمونه تمدناً، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة، وسير الاجتماع الإنسانى، هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الأفكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية، فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت فى سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم؟.

---

(١) الخصاص: الخلل أو الخرق فى الباب.

«نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء، لا تعرف غايتها، ولا تعلم بدايتها، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمات أخرى على حسب ما يختارون، ووقفوا عند هذا الحد، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم، وعرضوها معرض المباهاة، فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم، وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطرز الجديد، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة، وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها.

«علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم، شؤما على أبناء أمتهم، يذلونهم ويحقرون أمرهم، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت، وإن بقى فى بعض رجال الأمة بقية الشمم، أو نزوع إلى معالى الهمم، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه، حتى يمحى أثر الشهامة، وتخمد حرارة الغيرة، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

«أقول ولا أخشى لومًا: لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الإنكليز – لما بارحوها أبد الآبدين،

فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم، فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم. ولهذا لو طرق الأجانب أرضًا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم.

* * *

«فما الحيلة وما الوسيلة، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها، والوقت ضيق والخطب شديد؟ أى جهورى من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات؟ أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة، وتحرك الأفكار الخامدة؟ أى نفخة تبعث هذه الأرواح فى أجسادها، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى، الرءوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منفضة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال، ولا للأسماع إصغاء، ولا للنفوس رغبات، وللأهواء تحكم، وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم؟.

لا أطيل عليك بحثًا ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل: أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة، وضعفت بعد القوة، واسترقت بعد السيادة، وخيمت بعد المنعة، وتطلب أسباب نهوضها الأول، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل، فقد يكون ما جمع كلمتها، وأنهض همم آحادها، ولحم ما بين أفرادها، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم، وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها، إنما هو دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل

لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الإجتماعات البشرية. وحافظ وجودها، وينادى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

«فإن كانت هذه شرعتها، ولها وردت، وعنها صدرت. فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًّا، وحدوث بدع ليست منها فى شىء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين وعما أتى لأجله، وما أعدته الحكمة الإلهية له، حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر، وعبارات تقرأ. فتكون هذه المحدثات حجابًا بين الأمة وبين الحق الذى نشعر بندائه أحيانًا بين جوانحها.

فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بإمكان على ما كان فى بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينها، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنسانى..

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا.

«هل تعجب أيها القارئ من قولى إن الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشىء للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية!؟ إن عجبت فإن عجبى من عجبك أشد!!

هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية

والشتات، واتيان الدنايا والمنكرات، حتى إذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها، ونور عقولها، وقوم اخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم، وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها، ونقلوا إلى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس، وهيئة بطليموس، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين فى شىء من هذا، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها.

«وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك، وافتتاح الأقطار، وطلب السيادة على الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم، وارتفاع النفوس عن الدنايا، وبعد الغايات، وعلو المقاصد هى التى هذبت أخلاقهم، وقومت أفكارهم، وكفتهم عن معطاة الرذائل وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها.»

تجريد مصر من قوتها الحربية

وفى نفس العدد قالت ما يأتى تحت عنوان (مقاصد إنكليزية فى مصر):

«فى كل يوم تلح جريدة التيمس على حكومة إنكلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية زاعمة أنه يحل من الأهالى محل القبول ويسرون منه غاية السرور وتشير على الحكومة أيضا أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها فى تلك البلاد وأن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة المصرية وفروعها فى حاجة إلى إصلاح حقيقى ولن يقوم به إلا رجال الإنكليز.

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما أكنته من السلطة على البلاد المصرية وضمها إلى ممالكها الشرقية، وما كان ذلك خافيًا على أحد وإن كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم.

«وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم، ثم هى تموه فى تحسين ذلك بدعواها أن أهالى مصر يفرحون منه، مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهـد وزارة ويلسون[1] إنمـا كان منشأها العزم على تقليل عدد العساكر وإقفال المدرسة العسكرية، فالمصريون وهم هم لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجـون منه غـاية الانزعاج».

تخاذل الشرقيين والدعوة إلى الوحدة بينهم

وكتبت فى عدد ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ (١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٠١) تحت عنوان (واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا) مقالة أخذت فيها على المسلمين تخاذلهم وتفرقهم وإغفالهم شئون إخوان لهم فى بلدان أخرى وعدم إكتراثهم لما يحل بهم ففقدوا التضامن بينهم ولم يعد ثمة تعاون بين رجال الدين والسياسة فى مختلف الأقطار، وبينت أن تفرق الكلمة فى الدول الإسلامية أضعف من شأنها وجعلها هدفًا لمطامع أعدائها، ودعت العلماء فى جميع الأقـطار الإسلاميـة إلى توحيد كلمتهم وتوفيق الصلات بينهم لدرء الأخطار عن أوطانهم.

«إن للمسلمين سترة فى دينهم، وقوة فى إيمانهم، وثباتًا على يقينهم، يباهون بها من عداهم من الملل، وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم ﷺ كفالة لسعادة الدارين. ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء، وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم، حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالمًا كان

---

(١) تقصد الوزارة المختلطة التى كان يرأسها نوبار سنة ١٨٧٨ وكان فيها وزيران أجنبيان. أحدهما إنجليزى وهو ريفرس ويلسن Revers Wilsod، والثانى فرنسى، وهو دى بلينيير De Blignieres وقد سمتها (العروة الوثقى) وزارة ويلسن لأنه كانت له فيها الكلمة النافذة. للتحقير من شأن رئيسها نوبار وتقصد بالثورة العسكرية ثورة الضباط على هذه الوزارة سنة ١٨٧٩ وأدت إلى إسقاطها.

أو جاهلاً أن واحدًا ممن وسم بسمة الإسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبأ عن دينه رأيت من يصل إليه هذه الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الأضطراب، ودمه من الغليان، ويستفـزه الغضب ويدفعـه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب.

«المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتمدين فى الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطب، ولايباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حـال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه، وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الإسلامية يعرفها أهـل الحق، ولا يغير منهـا تأويـلات أهل الأهـواء وأعوان الشهوات فى كل زمان.

«المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذى بقى له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم، فأهل بلوخستان كـانوا يـرون حركات الإنجليز فى أفغانستـان على مـواقع أنـظارهم، ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنكليز فى بـلاد فارس، ولا يضجـرون ولا يتململون، وأن جنـود الإنكليـز تضـرب فى الأراضى المصرية ذهابًا وإيابًا تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة فى نفوس إخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين أحمرت

أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

«تمسك المسلمون بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب، فخذ مجملاً عنه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وإن كانت هى الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير مايعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها.

«نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس إلى مزايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل شهود يحدث فكرًا، وكل فكر يكون له أثر فى داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار، مادامت الأرواح فى الأجساد وكل قبيل هو للآخر عماد.

«إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتمام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجىء إليه الحاجات، من تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية، كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيًا. فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبه أو ألجأته ضرورة إلى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات، وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الإنسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض،

إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يعد فى الصور العلمية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا.

«بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك السبب فى سكون المسلمين إلى ماهم فيه مع شدتهم فى دينهم، والعلة فى تباطؤهم عن نصرة إخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضًا هجرًا غير جميل، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لاتواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلاً عمن يبعد عنهم، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى. وهكذا، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين افراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر، أما فى هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنساب بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه.

«كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين، أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق؟

«هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم، ولا بلد وبلد. إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام، وهذا النوع من الاحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته، كانت الملكة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض

ما أضعف الالتئام بين أجزائه. فتداعت للتناثر والانحلال. وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم.

«بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملةالإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم، كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الأديان، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام. خلافة عباسية فى بغداد، وفاطمية فى مصر والمغرب، وأموية فى أطراف الأندلس، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة.

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلاً وإذلالاً حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعًا، وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى مايليه، فتبدد الجمع إلى آحاد، وافترق الناس فرقًا كل فرقة تتبع داعيًا إما إلى ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيجة، وصار ما فى العقول منها صورًا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت، كما يكون على الأموات من الأقارب، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

«وكان من الواجب على العلماء قيامًا بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى

مشاجدهم· ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطًا لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل.

«إلا أنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وإن التفت إليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، وإلى الله المصير».

الجيش المصرى بقيادة الإنجليز
والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند

وقالت فى عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ (١٨ رجب سنة ١٣٠١):

«دخل الإنكليز مصر فزعموا أن ما كان موجودا من الجند الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جندًا جديدًا فى عدد قليل، واستلم الرئاسة عليهم ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثنوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالإطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد[1]. فهموا بذلك مرارا مع العزم على استبداله بآخر من أبناء الوطن، وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن هممهم كتموا أمرهم زمنًا ثم عادوا للإشارة إليه تعللاً بما ينسبونه إلى بعض العساكر، وهو من دسائسهم، وآخر الأمر خفتت أصواتهم وأحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لابد فيه من مشورة الدول.

«فى هذه الأيام رغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية

---

(١) تأييد لما ذكرته (العروة الوثقى) نقول: إن أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو إلغاء الجيش المصرى وخلق جيش هزيل يرأسه ضباط من الإنجليز، وقد بادر الإنجليز منذ الساعة الأولى إلى الغاء الجيش الوطنى، فأصدر الخديو توفيق فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ - بإيعاز منهم مرسومًا بإلغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للثورة العرابية، وكان التعجيل بهذا الاجراء الخطير ذريعة لإنجلترا لتسويغ بقاء جنودها فى مصر بحجة المحافظة على النظام فيها. وعندما أوفدت إنجلترا اللورد دفرين سفيرها بالآستانة إلى مصر وعهدت إليه وضع تقرير عن الحالة فيها. رفع تقريره فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ إلى اللورد جرانفيل وزير خارجيتها وقد تكلم فيه عن الجيش المصرى فذهب إلى أن مصر ليست فى حاجة إلى قوة عسكرية كبيرة للدفاع عنها (تأمل!) وإن مهمة الجيش المصرى يجب أن تنحصر فى إقرار الأمن والنظام داخل البلاد، وأوحى بأن لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندى، على أن يتولى قيادته قائد إنجليزى يعاونه لفيف من الضباط الإنجليز، وبذلك وضع دفرين فى تقريره قاعدة تجريد مصر من كل قوة حربية وهى السياسة التى حرصت إنجلترا على اتباعها طول عهد الاحتلال.

وتحويره ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها، فصرحوا فى لائحتهم المرسلة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية[١].

«إن الإنكليز من ست سنوات جعلوا الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصل فى مصر[٢] وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذاك الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تنقيص شىء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين. واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية، أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا تأمن طروقها حكومة من الحكومات، إن فى تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية كسرًا عظيمًا.

«للإنكليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند، وفى خلدهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يخالفونهم فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات، وألجئوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا إليه، وكان هذا التدبير سببًا فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة، وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جلبوا عليه من الهوينا فى المضى إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمنًا طويلًا، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصًا من الوعد الذى

---

(١) المؤتمر الذى تشير إليه العروة الوثقى هو مؤتمر لندن الذى دعت إنجلترا الدول فى ١٩ أبريل سنة ١٨٨٤ إلى عقده للمفاوضة فى شئون مصر المالية والنظر فى تعديل قانون التصفية، وقد عقد بلندن فى يونيو سنة ١٨٨٤، ولم يكن عقده لصالح مصر، بل كان مظهرًا للحماية المقنعة التى اعتزمت فرضها عليها. لأن عقد مؤتمر للنظر فى شئون مصر المالية دون السياسة معناه إطلاق يد الإنجليز فى مصر على أن هذا المؤتمر قد انفض على غير جدوى إذ لم يتفق المؤتمرون على طريقة تسوية حالة مصر المالية.

(٢) يقصد على الراجح خلع الخديو إسماعيل.

وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم، ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية.

«ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية، فلابد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة. هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوربيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنكليز، وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة، دمر[1] الإنكليز على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه، فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الإنكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب، وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب، بدءوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشهم الإنكليزية وقوادها وما هم عليه من العفة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الإنكليزية فأقبل الإنكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنكليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين، وما على الحاكم إلا أن يؤدى نفقتها، ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض، وصار الإنكليز بذلك أولياء المتباغضين

---

(١) دمر عليه: دخل بدون إذن أو هجم هجوم الشر.

وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها للحماية عنها، ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لأهل السنة والشيعة والوثنيين.

«ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام فى القرض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة. وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء، وبعد مضى زمان كانوا يومئون إلى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل فى قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفى منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التى أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وإنما نحن خادمون لكم فيضعون أيديهم على غضروات[1] الأراضى وفيحائها، وفى أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعًا حصينة وحصونًا منيعة كما يفعلون ذلك فى ثكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، وفى خلال هذا يفتحون للأمراء أبوابًا من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون أقرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ثم يذكون نار العداوة بين الحكام لتنتشب بينهم حروب فيتداخلون فى أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثانى عن قطعة من أراضيه، وهم فى جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها فى إيقاع الشقاق بين سائر الأهالى لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلت الأيدى فلا يستطيع أحد حراكًا ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التى كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها

---

(١) الأرض الطيبة. ويقال هم فى غضراء من العيش أى فى خصب وخير.

من ماله، ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضًا أو يمنحهم امتيازًا فيحولون الملك من الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفى الكل هم الرابحون، وهذا سيرهم فى الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا، ما فاجئوا أحدًا بحرب وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهاليها ولا بما تطرف به أجفانهم.

«أولئك الإنكليز باقعة[1] العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية، فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة فى مصر أن يطلب منهم جندًا إنكليزيًا يكون خادمًا له وحافظًا لملكه، فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق فى الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولاً عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكمًا خلفًا لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا، هذا سر انقلاب الإنكليز على الجند الوطنى وقدحهم فى سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم إلى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة.

«أما المؤتمر فالداعى إليه أن العدوان فى هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان فى الأحقاب الخالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكى والغبى، بل من أراد عدوانًا فلابد أن يحفه بمواكب من الأدلة وخفال[2] من البراهين وهو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح، وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو فى هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة.

«يريد الإنكليز عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم وأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول

(١) الباقعة: الداهية.

(٢) الخفال: الجمع الكبير.

الإقامة فى وادى النيل إلى أمد فيكون تفويض الدول حجة لهم فى التصرف وإدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلًا بلاد أوروبا، فإذا حدث حادث حرب فى الدول الأوروبية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا فى تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم، هذا سر شفقة الإنكليز على المصريين وهو سر رغبتهم فى وقوف المؤتمر عند شئون المالية.

«هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفز لتنقض على المصريين هل تمس بحفيفها جانب ألمانيا، كلا، فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهى فى الشغل بما هو أهم منها، وليست دولة (أوستريا) بأقرب إلى المصائب المصرية من ألمانيا، على أن كلا من الدولتين ليس فى استطاعتها تأييد فكرها بالعمل لو مست الحوادث المصرية شيئًا من مصالحها، فإن مواقع الدولتين لا تساعدهما على الإضرار بدولة الإنكليز، أما إيطاليا فهى ساكنة الجأش بما تؤمل نواله فى أفريقيا بمساعدة إنكلترا».

سوء الأحوال فى مصر

ونشرت فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م (٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ) رسالة جاءتها من مصر تصف سوء الأحوال فى مصر وتذكر طرفًا مما يعانيه المواطنون نتيجة للسياسة الإنجليزية قالت:

كتب إلينا صديق فاضل من خلص المؤمنين بالقطر المصرى قال:

إن مأمورى الإنكليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحيل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الإنكليزية، إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم إلا خيبة، لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الإنكليز ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصًا وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت أنفتهم من تسلط

الإنكليز فى ديارهم، وقاوموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة، وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكـامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الإنكليز فى رغبتهم، وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره، فإن وجد بينهم شخص يتخذ الهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى أفناد[1] ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به.

ومما أخبر به الصادق أن كليفورد لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أن أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يستلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم فإن الجميع مصـريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبى، فكيف لو كان الأجنبى لا يقاس بظلمه ظلم.

إلى أن قال الصديق الفاضل: أما الفلاحون فأحوالهم سيئة: ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم، والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل فى المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلاً عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس، ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدلالين فى فناء ديوان الحقانية[2] على خراب بيوت الفلاحين هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها وهذا يتفق عليه ببيع بعضها والآخر بالحجز على أملاكه والحكومة لا تنى فى طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات.

أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصًا من تعديات الأجانب على سكانها فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى

---

(١) الأفناد: الطوائف.

(٢) يريد المحكمة المختلطة.

فيها على الوطنى بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبى فى شىء وإن كان هو المعتدى، وإن سأل الوطنى أين خصمى فيقال له إنه يحاكم فى محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأسًا واكتفى فى فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد (هذا بعض آثار العدالة الإنكليزية).

وجاء فى خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الإنكليزى فى إدارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين.

أما الأمن فلم يبق له أثر وأما النظام فقد نقص بناؤه واقتلع أساسه واختزن الإنكليز نقاضه فى خزائن الآثار القديمة، فقويت عصابات اللصوص، وجاهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكده روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فإن جميعها يشتكى الملل والسآمة من رواية أخبار السوء كل يوم، إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية (نشرت) ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم، واحدًا وأربعين رجلاً فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلاً على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شىء قدير.

رئيس وزراء مصر
يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا

وكتبت فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م (٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ) النبأ الآتى:

«إلى اللورد غرانفيل[١] أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوروبا مدة غيبة السير بارننج[٢] فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد غرانفيل يطلب من الخديو أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا، هذا كله والإنكليز

(١) غرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا وقتئذ.

(٢) أفلين بارننج Evelin Barning المعتمد البريطانى فى مصر الذى صار اللورد كرومر.

لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم، وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف فى الإدارة أو التحكم فى أولياء الأمور، هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من غرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمرًا على الخديو باستيزار فلان وعزل فلان، فإن لم تكن هذه سيادة فما هى السيادة ؟».

وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق

وكتبت المقالة الآتية فى عدد ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ (١٠ شعبان سنة ١٣٠١) تحت عنوان «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» تنعى فيها تفرق أهواء الأمم الشرقية وتدعوها إلى الاتحاد وتحذرها من الشقاق قالت:

«أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه، بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجمع، والكلف بسيادة لا توضع، وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع فى ضآضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقا سويًا، ثم استبقى له حياته بقدر ما يمكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله.

«كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها، فلابد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض، إن التغلب فى الأمم كالتغذى فى الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة فى تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها. إذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم — إذا تصفحنا تاريخ كل جنس

واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها، وجدنا هذه سنة الله فى الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم إلا عند لهوهم بما فى أيديهم، وقناعتهم بما تسني لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلاً إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلاً طويلاً، وعذابًا وبيلاً، ثم فناء سرمديًا.

«الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم، وبما تفقده من ذلك، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته، ليجعل جزءًا من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة، ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة، ثم لا يكون نظرًا عقيمًا حائرًا بين جدران المخيلة، دائرًا على أطراف الألسنة، بل يكون استبصارًا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر، والدرجة الأولى من الإعتبار والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منها، ولا تقف فيها تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة، بل يأخذ العقلاء منها سيلاً من التفكير، ويخترطون سيوفًا من الهمة، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونواد من المكنة، ويستخرجوا دفائن من الثروة، ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده، وأن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون. ثم تتلوه سائر الأدوار، وأولها أقصرها وهو سن الطفولة، وبدء الكمال فيما يليه، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المستبصرة.

«إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذى بيناه، رأيت فى

الدهماء منهم والخاصة همًا تعلو، وشيمًا تسمو، واحترامًا يقود، وعزمًا يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فتتلاقى هممهم، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب، فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقًا من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر.

«هذان الأمران: الوفاق والغلب، عمادان قويان، وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسك بها، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة، جاء في قول صاحب الشرع أن «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر، وجاء في نهيه «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا» وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

«هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء، ونطق الكتاب الإلهي ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد في وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغي فقال ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ وإنما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى، ويصله جهنم وساءت مصيرًا.

«وفي أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة، وأخبر الصادق ﷺ أن «يد الله مع الجماعة» وكفى بالقدرة الإلهية عونًا إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد

بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الإسلامية اسمى درجة فى الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفًا عن حكم الله وما فى علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين. وعد جموده مروقًا من الدين، وانسلاخًا عن الإيمان. ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله ﷺ «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت». (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبدالله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعو عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه). فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى إليه.

هذا إجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين، بل بينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم، فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

«وأما السعى لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء الفروض منه، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فى مجلدات يطول عددها - هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

«هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا؟ كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين؟ وأيسر شىء علينا إقامتها وعديدنا مئتا مليون أو يزيد؟ هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن؟

«كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقًا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهى كلمة الله العليا، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا فى صياصيهم، وأيدينا على نواصيهم؟

إن لأبناء الأمة الإسلامية يقينًا بما جاء به شرعهم، لكن أليس علىَ صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين؟ ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق فى العمل؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الإيمان؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته؟

«لا. لا. إن المخلصين فى ايمانهم الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله الثابت فى قوله ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية، فأين المفر؟

«المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين، هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى من أيدينا ثم لا نبدى حركة، ولا نجتمع على كلمة، وتدعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟

واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام.

«إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه فى أعداد ماضية، فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزماناً عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم، فسهوا وما غووا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض فى الليالى المظلمة، كل يطلب عوناً وهو معه، ولكن لا يهتدى إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت، وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفى تلك البقعة عشير الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم، فما هى إلا كلمة تقال بينهم من ذوى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها عواكن القلوب، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية، فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب، وما ضاقت به صدورهم من غاراتاالغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقى، ذهبت إلى أن الإستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدًّا يوشك أن يكون فعلاً. وهو مما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ويهيىء لهم فوزًا ونجاحًا بعون الله الذى ما خاب قاصده، وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب.»

الوسائل لحفظ كيان الدولة

وكتبت فى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾.

أوضحت فيها أن البلاد التى أصيبت فى كيانها واستقلالها كانت هى الظالمة

لنفسها إذ كانت تثق بأعدائها الطامعين فيها وتتخذ منهم أولياء فكانوا حربا عليها وأن المترفين فى تلك البلاد كانوا صنائع للاستعمار، وأن القوة والعدل هما أساس الملك. فقالت:

«أهلك الله شعوبًا، وأباد قبائل، ودمر بلادًا، ولا يزال عدل الله يبدل قومًا بقوم ويأتى لكل حين بأناس آخرين، فكم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سببًا، ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾. وليست أفعاله جزافًا، ولا يصدر عنه شيء عبثًا، أمر الله عباده بالسير فى الأرض ﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قص الله عليه فى كتابه المنزل بحكم حكمًا لا يخالفه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسها الضر فى شيء، إلا وكانت هى الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله، وانتهكت حرماته، ونبذت أوامره العادلة، وانحرفت عن شرائعه الحقة، وحرفت الكلم عن مواضعه، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات.

«كما أن للأغذية والأدوية واختلاف الفصول والأهوية أثرًا ظاهرًا فى الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر فى الهيئة الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة.

«إن تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بنى الإنسان فى هيئة اجتماعهم، فيسهل الوقوف على سره لكل ذى إدراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

«ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سببًا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة. وجعل التنازع والتغابن علة للضعف، وداعيًا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهيئًا لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم. فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصابًا بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرك سر أمر الله فى قوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا﴾ وسر نهيه فى قوله ﴿ولا تفرقوا﴾ وقوله ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[١].

«إن الله تعالى جعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به، سببًا فى اختلال الأمن وفساد الحال، فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شيء، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية، ولا تصل به رابطة صحيحة، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سره، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته، ودفع المضار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وإن كان مليكًا ضاع ملكه، أو أميرًا بطل أمره، والحوادث شاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله ﴿لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ وقوله ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر﴾ وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

«لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه، وواجب يلزمه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا، ويعد لها مآلاً صالحًا فى الآخرة، وهو إنسان له قلب واحد، لو جعل معظم همه فى شيء فاته سائر الأشياء، فلو توغل فى الشهوات، وبالغ فى الترف، وبطر فيما أنعم عليه، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرم من منافعه، وحل به من عقاب الله أشد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معا، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره، واحترق

(١) جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم.

بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته، أو يواطنه فى مدينته..

وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بمالا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء[١]، وأن فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾.. ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون.. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾.. ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

«ما أوتى الإنسان من العلم إلا قليلا. لا يمكن الإنسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه، ولا أن يطلع على منافع فوائده ليكسبها، أو يكشف مكامن مضاره فيتقنها، خلق الإنسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾ خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

«هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمته، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع. لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقارًا إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه، وقد أمر الله نبيه المعصوم عن الخطأ بالمشورة تعليمًا وإرشادًا فقال ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ وقال فيما امتدح به المؤمنين ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم؟ وأى بصيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم؟ ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾.

---

(١) الأكمه: من يفقد نور عينيه منذ ولادته. والأنثى كمهاء.

«إن وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وقت معرضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع فى طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه، وليستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم، وثمار كدهم، ويمنحوها أبناء جلدتهم. فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله، والحكام النائبين عنه فى إيالاته، وقواد جيشه، وعلى كل أرباب الرأى، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية. فلو فرطوا فى اعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم، ويقوى شوكتهم، بأى وجه كان، ومن أى نوع كان، فقد عرضوا ملكهم للهلاك، وألقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار.

«هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصل إليه إدارك الجاهل والعليم. وهو سر الإفصاح والإبهام فى قوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أمر بإعداد القوة ووكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة، على حسب ما يقتضيه الزمان. وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبه الغافل، ويذكر الذاهل، ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا﴾.

«إعطاء كل ذى حق حقه، ووضع الأشياء فى مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفى نفوس الأمة من العلل. هذا مما تحكم به بداهة العقل، وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض، وثبت نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله، كذلك الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل، وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى من توجه إليهم الأوامر والنواهى فى هذا الباب، العدل هو الحكمة التى امتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾ وهى مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

«من سار فى الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكـان بصير القلب، علم أنـه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجده إلا لشقـاق واختلاف، أو ثقـة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الأجنبى، أو استبداد فى الـرأى، واستنكاف عن المشورة، وإهمال فى إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها، ووضع الأشيـاء فى غير مـواضعها، فيكـون جور فى الحكم، واختلال فى النظام، وفى كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

«لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التى ألمت بالممالك الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذى ضربه الله لنا، وأرشـدنا إليـه، وبيننا من اتبـع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾.

فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، ان يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله، وإيقاظ النائمـة قلوبهم عما فـرض الدين، ويعلمـوا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، وليستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا، ويحـذرهم سوء العـاقبة لـو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبى وأصحابه، ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نـزل بها من قضـاء الله عندمـا حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره ﴿فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

«على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ووعده الحق فى قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾. هذه وظيفة العلماء الراسخين. وما هم بقليل بين المسلمـين. ولا نظنهم يتهاونون فيما فرض الله عليهم. ووكل إلى ذمتهم. وهم أمناء الدين وحملة الشرع

ورافعو لواء الإسلام. وأوصياء الله على المؤمنين. أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بإرشادهم».

ولاء الخديو توفيق للاحتلال

وكتبت فى عدد ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ (٢٢ شوال سنة ١٣٠١ النبذة الآتية بعنوان توفيق باشا).

«يتوكأ الإنجليز على توفيق باشا فى حركتهم بمصر ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه، وما يكون من شر ينسبونه إليه وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم ويردونه إلى أنفسهم. وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية، وهو يميل معهم ويعدهم فى مقاصدهم ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية، كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات، فإن كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقدًا بدين الإسلام فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه، فإن لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته ويقاوم الإنكليز بما فى جهده ويموت شهيدًا فى سبيل دينه ووطنه، وإلا فليس يغنى عنه من الله شيئا أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنكليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ويود لو يخرجون كما أنبأتنا الأخبار الخصوصية من القطر المصرى.

إذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتوى فعلى المصريين أن لا يقعوا صيدًا فى يد الإنكليز بهذه الحبالة البالية وهذا الفخ الواهن ولينظروا فى شئونهم وما توجبه عليهم فروض دينهم، وإلا فما الله بغافل عنهم.

وفى هذا المعنى كتبت الجريدة المقالة الآتية فى نفس العدد:

«كثيرًا ما أتينا فى جريدتنا على بيان الإنكليز فى تملك الهند وتذليلهم لأهاليه وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنكليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار فيقتلون ويقتلون حتى يتغلبوا على

من يريدون، وقلنا إن الإنكليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غـزيرة ولا صرف أموال وافرة وإنما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون فى كل بلد أسودًا ضارية فى جلود ضأن ثاغية، يعرضون أنفسهم فى صورة خدمة صادقين وآمنة ناصحين طالبين للراحة مقومين للنظام، نادينا مرارًا بأن الإنكليز إذا أرادوا التدخل فى ملك للشرقيين ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير وأن وجوده فى الملك يبطئ سيرهم إلى ما يقصدون بادروا إلى التشويش عليه، فأما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويثيروا عليه أحقادها أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر. أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة ثم ينصبوا بدله إما ضعيفًا أحمق وإما صبيًّا لم يبلغ الرشد، إما من أبناء المالك أو أقاربه – ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق مع إصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا فى بداية العمل.

إلى أن قالت:

من أدق رجال الحكومة الإنكليزية فى فن الحيلة وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعًا فى النفاق وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها وأشهرهم فى عداوة المسلمين ذلك اللورد المحموم (نور ثبروك)[١]. كان هـذا الرجل البارع حاكمًا فى الهند. فأذاق أهاليه مر العذاب فى كئوس المحبة والوداد. كم خرب بيوتًا وقلب عروشًا وكم خفض رفيعًا وأذل عزيزًا وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة ويسكب دموع المرحمة على الهنديين ويقول إننى أول إنكليزى تهمه رفاهة أهل الهند واننى وحيد بين الإنكليز بمحبة الهنود والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح واننى أستغفر الله إن كنت قصرت فى عمل يوصل بهم إلى الفلاح، وينادى فى الهنديين بقوله: وأأسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتمـونى ولا أحطتم بما حواه ضميرى من إرادة الخير لكم هذا هو الكاهن الحاذق فى

(١) اللورد نورثبروك Lord Northbrook حاكم الهند العام السابق وقد أوفدته إنجلترا إلى مصر فى أغسطس سنة ١٨٨٤ ومهمته درس الحالة فى مصر وتعرف «النصائح» التى ترى بذلها للحكـومة المصرية لكى تستأنف بحث ما أخفق فيه مؤتمر لندن. وقد أكرم الخديو توفيق وفادته. وأخذ يزور المصالح والدواوين ويستقبل الموظفين والأعيان كأنه الحاكم بأمره.

وعظه «ودونه فى النفاق عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى الإسلام» إن الحكومة الإنكليزية عرفت قدره فى براعته ومعرفته بوجوه المكر وخبرته بأحوال الأمراء الشرقيين وسعة علمه بكيفيات التصرف فى عقولهم وأهوائهم وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون - واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسلمين. لأجل هذا قررت أن تبعثه على مصر وعزمت على إرساله إليها مفوضًا من قبلها يفعل ما يشاء، ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم، فإن تسنى له نجاح ورضى المصريون على أنفسهم عار الذل ووصمة الضيم فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة فى جميع أعماله يستخدمه لإدخال مصر فى ملك الحكومة الإنكليزية، يلقنه الأوامر السامية ويلهمه الإرادات السنية لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد الثائرة وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنكليزية، فإن تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولدًا صغيرًا لم يبلغ الحلم واستند فى ذلك إلى الفرمانات السلطانية «يحترمونها إذا وافقت أغراضهم» وجعل نوبار باشا ديوانًا له، نوبار باشا لا يقصر فى هذا العمل ولا يألو جهدًا فى إبلاغه إلى نهايته، نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ولا هو مصرى فيخشى على وطنه ولا هو عربى فتأخذه النعرة على جنسه، وبهذا الطريق ينال سلطة فى القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقى من عمره ويكون فى أمان من العزل تحت ظل الحكومة الإنكليزية.

إلى أن قالت:

هذا هو نور ثبروك الذى تريد حكومة إنكلترا أن ترمى به مصر، وهذا هو الاصلاح الذى يقصد إجراءه فيها، لكن رجاءنا فى المسلمين وأملنا فى المصريين وقوة إيماننا بوعود الله وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية وتألب الدول على معاكسة الحكومة الإنكليزية، كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر فى قصده. والله لا يهدى كيد الخائنين.

وفى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) كلمة جاء فيها تحت عنوان:

تعظيم توفيق باشا نور ثبروك

«ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نور ثبروك إليها. وحصلت الملاقاة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رقيمًا من اللورد (غرانفيل) يؤذن أن اللورد نورثبروك هو الوكيل الأعلى للحكومة الإنكليـزية فى القـطر المصرى ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعده فى حل المشـاكل الحـالية خصـوصًا المسائل المالية، فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه.

«يظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد (نورثبروك) وإن لم يكن بينه وبينه معرفة خصوصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله فى بلاده، هذا يمكن ولكن ليت شعرى ماذا يجنى هذا الخديو الشاب من مراضاة هذا المخادع وماذا يصيبه من سهام حيله؟ بيننا فى بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفًا من أعماله فى الهند، وتذكر الآن عملاً آخر منها:

طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنكليزية من مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسعة تتاخم لاهور و (بتيالة) فادعى على مهرجتها (ملكهـا) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعـه بهذه الـدعوى وسجنـه فى (بكسـو) حتى مات حتف أنفـه وقيل بـالسم، وكان هـذا الملك المخلوع ابن «راندهيرسنك» ونصب بدله ولدًا صغيرًا من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الإنكليزية.

«كانت الحكومة الإنجليزية تركت لبعض الـرجوات المخلوعـين غابـات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد، فكان أولئك المساكـين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها، فلما جاء اللورد (نورثبروك) حاكمًا فى الهند رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة، هذا اللورد هو الذى طلب (سميع الله خان) الدهرى ليكون معينًا له فى مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنكليز، وهو الذى أعطى المبالـغ الوافـرة للمعلم

(بالمر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا أيام الحرب المصرية، كما أخبرنا الثقة الصادق من لوندرة، ولكن العرب قتلوا رسوله وشنق به أشخاص فى مصر بلا جرم، هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه، صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال».

سنة الله فى الأمم

ونشرت فى عدد ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

«تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون».

هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد؟ هل كذب الله رسله؟ هل ودع انبياءه وقلاهم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟ نعوذ بالله !!

هل أنزل الآيات البينات لغوًا وعبثًا؟ هل افترت عليه رسله كذبًا؟ هل اختلفوا عليه إفكًا؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها وإشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم إليه بالا يعقلون؟ نستغفر الله !

أليس قد أنزل القرآن عربيًا غير ذى عوج، وفصل فيه كل أمر، وأودعه تبيانًا لكل شيء؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، هو الصادق فى وعده ووعيده، ما اتخذ رسولاً كذابًا، ولا أتى شيئًا عبثًا، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

«يقول الله ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ ويقول ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ويقول ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ ويقول ﴿ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا﴾.

هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلًا، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل، إلا من ضل عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة، وما جعل الله لمجدها أمدًا، ولا لعزتها حدًّا.

«هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير فى سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده. هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فأخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها ابراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر فى همتها اختلاف الأهوية، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها احكام القوانين ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم فى فنون السياسة.

كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها، ويستهينون بها. وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن فى نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك، ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعتها مالم تنله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدًا فى الدنيا، وسعادة فى الآخرة.

«هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتى مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الأتلانتيكى إلى أحشاء بلاد الصين، تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار

رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة، يتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبًا شعبًا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى أن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملمة، ويمسون فى كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التى تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم.

«هذه هى الأمة التى كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات، استبقاء لحياتهن، وملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلف إلى تلك الدول الأجنبية، ياللمصيبة ويا للرزية !!

«أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل.

ما سبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسىء الظن بالعهود الإلهية؟ معاذ الله ! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ نعوذ بالله !

هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد ما أكده لنا؟ حاشاه سبحانه لا كان شىء من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننًا متبعة ثم قال ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

«أرشدنا الله سبحانه فى محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة فى الرأى، والصدق فى القول، والسلامة فى الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمتهم، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشبهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم

فى حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

«هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماها فى التحلى بالفضائل التى أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولاتتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى فى الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال.

«علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح؟ هل غير الله مابنا قبل أن نغير مابأنفسنا، وخالف فينا حكمه، وبدل فى أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا فى الأمر وعصيناه من بعد ما أدى أسلافنا ما يحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئًا، فبدل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية.

نبذنا أوامر الله ظهريا، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه.

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى فى أحد منا حراكًا؟

«هذا العدد الوافر، والسواد الأعظم من هذه الملة لايبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئًا من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان.

تفرقت كلمتنا شرقًا وغربًا، وكاد يقطع ما بيننا، لا يحن أخ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب احدانا فى الآخر إلا ولا ذمة، ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعزه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

«أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة، ولا يمس سواد القلوب؟ هل يرضى الله منهم بأن يعبدوه على حرف؟ فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن اصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ هل ظنوا أن لايبتلى الله ما فى صدورهم، ولا يمحص مافى قلوبهم؟ ألا يعلمون أن الله لايذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون فى سبيله بحال، ولا يشحون بنفس؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة فى سبيل الإيمان، لا بماله ولا بروحه؟

«إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، ويقولون فى إقدامهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، وكيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول فى سبيل الله حى يرزق عند ربه؟ ممتع بالسعادة الأبدية فى نعمة من الله ورضوان؟ كيف يخاف مؤمن من غيرالله، والله يقول ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

«فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتى يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله من خصائص الإيمان، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا.

ياسبحان الله، إن هذه أمتنا أمة واحدة، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز، واجماع الأمة سلفاً وخلفاً، فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان آهلون بكل أرض، متمكنون بكل قطر، ولا تأخذهم على الدين نعرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شىء حتى تقيموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى، وتتخذوه إماماً لكم فى جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم فى العمل كما كان سلفكم الصالح.

ألا ياأهل القرآن هذا كتابكم فاقرءوا منه ﴿فإذا أنزلت سورة محكمةوذكر

فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت﴾.

ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت فى وصف من لا إيمان لهم. هل يسر مؤمنًا أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة، أو غرَّ كثير من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم، وما حسنته لديهم أهواؤهم؟ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

«أقول ولا أخشى نكيرًا: لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان، لا يراعى فى ذلك عذرًا ولا تعلة، وكل اعتذار فى العقود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله.

وها نحن نرى الإنكليز دخلوا أرض مصر وأخذوا يجولون فى أطرافها ويمهدون السبل لأمتلاكها، ومع ذلك لا نرى من أهلها إقدامًا فعليا لمصادمة القوة الإنكليزية، مع أن كل واحد منهم يزعم نفسه فى أعلى درجات الإيمان، ويزيد المتعجب عجبًا أن مصر يسكنها من المسلمين أقوام مختلفو الشعوب والأجناس، ألا يوجد «حلبى» يكون آية لما كان عليه أسلافنا ودليلا على أن تلك الروح الطيبة لم تنزع منا وأن الغيرة والحمية وشهامة الإيمان لم يزل بها مقام من نفوسنا. لا ريب عندنا أن أية حركة جزئية كانت أو كلية فى أى قطر من الأقطار التى لها تعلق بحكومة الإنكليز يوجب إحباط أعمالها وتنكيس أعلامها وخيبة آمالها.

أما لو فاتت المسلمين هذه الربكة التى يعانى الإنكليز ما يعانون فيها فليستروا وجوههم بقناع الخجل ولا يغشوا أنفسهم بدعوى الإيمان واتباع القرآن فإنما هى ألفاظ على طرف اللسان لا تحكى عن عقيدة فى الجنان.

«مع هذا كله نقول: إن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضًا يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم إلى عهد الله الذى لا يخلف، لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نورًا يبهر الأبصار، وأعمالاً

تحار فيها الأفكار، وأن الحركة التى نحسها من نفوس المسلمين فى أغلب الأقطار هذه الألام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوجد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريبا، فإن فعل المسلمون واجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ونصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله: جمع كلمةالمسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدًا﴾.

الوهم

من مقالة نشرت فى العدد نفسه:

«ألا قاتل الله الوهم. الوهم طورًا يكون مرآة المزعجات ومجلى المفزعات، وطورًا يكون ممثلاً للمسرات حاكيًا للمنعشات، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قويًا والقريب بعيدًا والمأمن مخافة والموئل مهلكًا، الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه، يمثل الموجود معدومًا والمعدوم موجودًا، الوهم فى كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع، لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه، الوهم روح خبيث يلابس النفس الإنسانية وهى فى ظلال الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الإرادات فتقود الواهين إلى بيداء الضلالة، فيخبطون فى مجاهل لا يهتدون إلى سبيل ولايستقيمون على طريق.

«كان الإنكليز أمة مجتمعة القوى مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحرًا وكرامة، فانتهز الإنكليز تلك

الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التى أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الإنكليز من حبائل الحيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما فى أيديهم بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الانكليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفهت بما ملكت، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة وأنحاء شاسعة وقواها منقسمة على تلك الأقطار متوزعة فيها، فلا ترى فى كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرًا من العدد والعدد، وهى فى جميعها ضعيفة واهنة لا تستطيع ذودًا ولا دفاعًا، وإن أخف حركة فى تلك الأنحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على أنفس الأمة الإنكليزية، فهى دائمًا فى رجفة على أملاكها فى خيفة من تمزقها وضياعها، تتوجس من كل حادثة فى العالم وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة فى قوى الإنكليز المتوزعة فى الانحاء الضعيفة فى جميع الأرجاء.

«ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفيًا على الشرقيين محجوبًا عنهم بحجاب الوهم.

يمثل الوهم لكل شرقى أن الإنكليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم، فمثل الشرقيين مع الإنكليز كمثل مار فى مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقة فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعًا ضاريًا ومفترسًا قويًا، فينكب عن الطريق وهمًا وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفًا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول إلى غايته، وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه، بل لا نخطىء إنْ قلنا إن هذا الوهم كان متسلطًا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين، فالأوروبيون كانوا ينظرون إلى انكلترا فى أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها فى جزائر بريطانيا، وكانت حكومة إنكلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحس الإنكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائمًا فى ستره ولا ستار اكثف

من الوهم، ولهذا نراهم فى كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام فتحول أنظار الناظرين، وتغشى بصائر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنكليز.

«ذهب الإنكليز إلى الهند فى قوى مجتمعة، وتسابقوا مع الفرنساويين وهولاندا والبرتغال فى مدن الأراضى الهندية الواسعة، فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد، أو طيب قلوبهم، فمالت النفوس إلى الإنكليز اغترارًا وتغلبوا على تلك البلاد، واستقلوا بأمرها شيئًا فشيئًا وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم، أما نحن (الإنكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم.

ثم إنا نرى للإنكليز الآن فى الهند الأصلية والهند الصينية والبرمان[١] سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونًا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنكليزية طالب للتخلص منها بفضل أية سلطة سواها ظالمة كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الإنكليز ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنكليز فى الكبرياء والجبروت، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة، لا يوجد فيهم قوة لقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندى إنكليزى، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندى، هذا فضلاً عمن يمكنه حمل السلاح من أهالى البلاد التى دخلت فى الحكومة الإنكليزية وزال استقلالها بالمرة، فلولا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضة

---

(١) بورما.

قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ونظروا إلى ضعف الإنكليز فى الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن استقلالهما لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة.

«يوجد فى الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنكليز اعتبارًا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عده رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الأطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا أو تقترب منها، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنكليز قد مد فى الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع)، تفرقت قواهم فى بسيط الأرض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة، ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليه، يترقبون فى كل آن زحفًا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين.

لو التفتت تلك الدولة التى تهاب إنكلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ومشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لولا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم».

التنبيه إلى مقاصد الإنكليز

كتبت فى آخر عدد ظهر من العروة الوثقى (العدد الثامن عشر) الصادر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان (عماء بعض الناس فى مصر أو تعاميهم عن مقاصد الإنجليز) وجهت فيها الخطاب إلى بعض من خدعوا فى وعودهم. قالت ضمن ما قالت:

«ظهرت مقاصد الإنجليز وانكشفت مضمراتهم، وإن كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكودة الحظ (لا نريد نوبار باشا فإنه ضارب فى طريقه ذاهب فى

مقاصده) يتزلف للإنجليز بكل ما يمكنه لينال بهم ما أشرنا إليه مرارًا، تسول لهم أنفسهم إما جهلاً وإما طمعًا، أن يميلوا مع ريح الحكومة الإنجليزية لأنهم يظنون أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيرا، فإذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الإنجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعت إلى بلادهم.

« والعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى إليه العمد والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد طورًا بالسر وآخر بالعلن، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد، أما كان يكفى هذا السير لدرك الحقيقة؟ فيم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون؟ ألم يكشف الغطاء عن نية السوء سؤال اللورد نورث بورك للشيخ العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر[1] ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله: ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا (نحن الإنكليز أن نديم الإقامة فى البلاد؟ فلو لم يكن لدولة الإنكليز عزم على تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسى الداهية يبتدر شيخًا من أجل المشايخ وأعلاهم مقامًا فى القطر المصرى بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون وإحداث الريب؟!.

أجابه حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الإنكليز فى معاهد مصر، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء، ولكن كان استدراكه مناقضًا لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلاً عن الراشدين، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكنه مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر.

« أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد، أى إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل

---

(١) هو الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية صاحب الفتاوى المهدية.

ما يسمى جندًا مصريًا ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية؟ إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضباطة. ما هذا الاهتمام إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر؟ هذا سبيل سلكه الإنكليز فى جميع فتوحاتهم كما نبهنا عليه مرارًا وأن هذا الكيس الداهية الإنكليزى لا يحيد عنه بعد ما سلكه أسلافه قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره، يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وإبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الإنكليزية البريطانية أو الهندية تعللاً بأخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدمة النظامية، وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة، وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الإنكليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية».

احتجاب العروة الوثقى

احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة لسنة ١٣٠١) فكان هذا العدد آخر ما صدر فيها، وكان أول عدد قد ظهر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤. فكأنها استمرت فى الظهور سبعة أشهر.

ويبدو أن تهاون الشرقيين فى الإقبال عليها وإمدادها بالعون والتأييد كان السبب الأول لاحتجابها، وكان لمحاربة الإنجليز أثر كبير فى احتجابها، فقد منعت دخولها إلى مصر والهند كما سلف القول، فالأمم الشرقية والسياسة البريطانية يتحملان معا تبعة وقف هذه الصحيفة التى كانت أقوى صرخة أيقظت النائمين ونبهت الغافلين، ومع قصر المدة التى عاشتها، فإنها عملت فى بعث الشرق أكثر مما عملت صحف أخرى فى عدة سنين، ولقد ظل أثرها بعد احتجابها باقيًا مدويا فى الأذهان كلما توالت الأيام والأعوام، ولا ريب أن للحكيم الأفغانى والأستاذ الإمام الفضل الأكبر فيما بلغته هذه الصحيفة من المكانة الرفيعة والأثر الخالد فى نفوس الشرقيين جميعًا.

انفصل الحكيمان

بعد أن توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان وعاد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى بيروت ثم إلى مصر سنة ١٨٨٩ (١٣٠٦ هـ)، وانقطع عن الكفاح السياسى وانصرف إلى الاصلاح الدينى والاجتماعى، أما جمال الدين فاستمر على الكفاح السياسى إذ أنه يراه الأساس لنهضة الشرق.

ويبدو أن اختلاف الحكيمين فى هذا الصدد قد بدأ فى باريس فقد أشار الأستاذ الإمام على جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسكان دولة تعرقل سيرهما، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء ويختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية، ومن يتوسمان فيهم الخير، ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه، ويعدانهم للزعامة والإصلاح، ولكن جمال الدين لم يقبل هذا الرأى وعده تراجعًا عن الكفاح السياسى وتثبيطًا للعزيمة، ورجح رأى جمال الدين مؤقتًا فأصدر الحكيمان جريدة العروة الوثقى، وبدأ من أسلوب الجريدة أن الأستاذ الإمام اقتنع برأى أستاذه، على أنه حين عاد إلى مصر سنة ١٨٨٩ رجع إلى فكرته التى أبداها فى باريس وانقطع إلى الإصلاح الاجتماعى والدينى، وبلغ فيه الذروة، ولقد قلت فى هذا الصدد سنة ١٩٢٧ فى كتابى عن (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) «ونقطة الضعف فى شخصية (الأستاذ الإمام) هى تخلفه عن الكفاح السياسى، واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى، ولقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته إلى مصر سنة ١٨٨٩، فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الأيمن، وإنك لتلمح تراخى الصلات بينهما – حتى الصلات الشخصية – منذ أن عاد إلى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الإمام[1] فإنك

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام للسيد محمد رشيد رضا الجزء الثانى.

لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها إلى السيد فى محنته ومنفاه، بل إن جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧ فلا تجدالأستاذ الإمام كلمة فى رثاء أستاذه الروحى والفلسفى وزميل جهاده فى (العروة الوثقى). وهذه الناحية هى أثر من آثار الاحتلال»[١].

جمال الدين ورينان

جرت لجمال الدين فى باريس أبحاث مع الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان Irnest Renane فى العلم والإسلام، فقد ألقى رينان فى (السوربون) محاضرة فى هذا الموضوع قال فيها: إن إنتاج الأمم غير العربية أكثر من إنتاج الأمم العربية، وإن التمدن أكثره من إنتاج الفرس وغيرهم دون العرب، وزعم أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة، والبحث الحر، وإن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه، أو كان فى حماية خليفة أو أمير من المؤمنين، وقد نشرت هذه المحاضرة فى جريدة الديبا الفرنسية Journal des-Dêbats وكان ممن رد عليه رئيس البعثة المصرية بفرنسا حينذاك.

ورد جمال الدين على هذه المحاضرة، ونشر رده فى جريدة الديبا، وخلاصة رده: أن ما ذكره رينان عن الإسلام ليس هو من طبيعته ونتيجة تعاليمه، بل من عمل بعض من اعتنقوا الإسلام فى بعض العهود، وإن الاضطهاد الذى قال عنه رينان قد وقع مثله فى الأديان الأخرى، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن، وأما عن قوله إن الاسلام لا يشجع العلم، فان الكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال البداوة التى كان عليها قبل الإسلام وأخذ يسير فى التقدم العلمى والفكرى ويسير فى هذا المجال بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، فتقدمت العلوم تقدمًا مدهشًا بين العرب وفى كل البلاد التى انضمت لسيادتهم.

وقد أكبر رينان هذا الرد، والتقى به وتباحث وإياه فى الموضوع وأعجب رينان بعبقريته وسعة علمه وقوة حجته وقال عنه «كنت أتمثل أمامى عندما كنت

(١) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ص ٥٤٢ الطبعة الأولى.

أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد، أو واحدًا من أساطين الحكمة الشرقيين» وقال إن جمال الدين الأفغانى خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس.

الفصل السادس

فى فارس وروسيا وتركيا

أخذ جمال الدين ينتقل بين باريس ولندن إلى أوائل فبراير سنة ١٨٨٦ (جمادى الأولى سنة ١٣٠٣).

فى فارس

ثم استدعاه ناصر الدين شاه فارس فلبى الدعوة وقصد إلى طهران فاستقبله الشاه بصدر رحب، وأثنى على فضله وجعله مستشاره الخاص فى إصلاح شئون بلاده، فكان له نعم المرشد الأمين، وكانت لهجته صريحة كعادته فى نصح الشاه، وأشار عليه بتغيير كل شأن معيب من شئون الحكومة، وقال بضرورة اشتراك الأمة فى الحكم، على أن الشاه لم تألف نفسه إقامة الشورى فى بلاده، فتنكر لجمال الدين إذ رآه ميالاً إلى إقامة النظم الدستورية،

ولما أدرك جمال الدين تغير الشاه استأذنه فى السفر فأذن له.

فى روسيا

فذهب إلى روسيا وزار عواصمها، فاستقبله الخاصة بالتجلة والاحترام لما سمعوه من مكانته، وكتب عدة مقالات فى الصحف الروسية وكانت لهجته معبرة فى إظهار دسائس السياسة الإنجليزية.

وقد دعاه القيصر لمقابلته، واحتفى به كثيرًا، على أن القيصر فى خلال حديثه معه سأله عن سبب اختلافه مع الشاه، فذكر له رأيه فى الحكومة الشورية وأن

الشاه لا يشاطره رأيه فيها وينفر منها، ولم يكن القيصر أيضا يقبل هذا النوع من الحكم فقال: «إنى أرى الحق فى جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟».

فلم يسكت جمال الدين على كلام القيصر، وأجابه فى جرأة وفصاحة: «أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون الملايين من رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور سموم الحقد والانتقام»، فبهت القيصر من هذا الرد، وعلت وجهه علامة الغضب وقطب حاجبيه، ولم يطل الحديث بعد ذلك بل قام من مجلسه إيذانا بانتهاء المقابلة، وودع جمال الدين بغير الشكل الذى استقبله به، إذ كان وداعًا فاترًاثم أوعز إلى كبار رجال حاشيته أن يسرعوا متلطفين لإخراجه من روسيا.

فى فارس مرة أخرى

ترك جمال الدين روسيا. وأخذ يتجول فى أوروبا. ولما كان معرض باريس العام سنة ١٨٨٩ رجع جمال الدين إليها، وفى عودته منها التقى بالشاه فى ميونخ عاصمة بافاريا، فاعتذر له عما فرط منه ودعاه إلى صحبته إذ كان يرغب فى الانتفاع بعلمه وتجاريبه، فأجاب الدعوة، وسار معه إلى فارس، وأقام فى طهران، فحفه علماء فارس وأمراؤها وأعيانها بالرعاية والإجلال.

واستعان به الشاه على إصلاح أحوال المملكة وسن لها القوانين الكفيلة بإصلاح شئونها، فعمل بجد فيما عهد إليه ووضع مشروع دستور لفارس يجعلها ملكية دستورية، ولكنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ فى الحكومة، وخاصة الصدر الأعظم، فوشوا به عند الشاه، وأسر إليه الصدر الأعظم أن هذه القوانين وخاصة الدستور تؤول إلى انتزاع السلطة من يده، فأثرت الوشايات فى نفس الشاه، وبدأ يتنكر للسيد، ولما اطلع على مشروع الدستور هاله الأمر حين رأى أن حكمه سيكون مقيدا وأن المجلس النيابى الذى يفرضه الدستور سيجعل الأمة أوسع سلطانًا من الشاه، فقال لجمال الدين: «أيصح أن أكون يا حضرة

السيد وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين؟» فقال جمال الدين: «اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هى الآن، واسمح لإخلاصى أن أؤديه صريحًا قبل فوات وقته، لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية؟».

جاء هذا الحديث مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم لدى الشاه فنفر من جمال الدين نفورًا شديدًا، وأحس بهذا التعبير فى موقف الشاه حياله، فاستأذن فى المسير إلى المقام المعروف (بشاه عبد العظيم) على بعد عشرين كيلو مترا من طهران، فأذن له، فوافاه به جم غفير من العلماء والوجهاء من أنصاره فى دعوة الإصلاح، فازدادت مكانته فى البلاد، وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه، فاعتزم الإساءة إليه، ووجه إلى (شاه عبد العظيم) خمسمائة فارس قبضوا عليه، وكان مريضًا، فانتزعوه من فراشه، واعتقلوه، وساقه خمسون منهم إلى حدود المملكة العثمانية، فنزل بالبصرة، فعظم ذلك على مريديه، واشتدت ثورة السخط على الشاه.

دعوة جمال الدين ضد الشاه

أقام السيد بالبصرة زمنًا حتى أبل من مرضه، ثم أرسل كتابًا إلى كبير المجتهدين فى فارس ميرزا محمد حسن الشيرازى، عدد فيه مساوئ الشاه، وخص بالذكر تخويله إحدى الشركات الإنجليزية حق احتكار التنباك فى بلاد فارس، وما يفضى إليه من استئثار الأجانب بأهم حاصلات البلاد، وكان هذا النداء من أعظم الأسباب التى جعلت كبير المجتهدين يفتى بحرمة استعمال التنباك إلى أن يبطل الامتياز، فاتبعت الأمة هذه الفتوى، وأمسكت عن تدخينه، واضطر الشاه خوف انتقاض الأمة إلى إلغائه، ودفع للشركة الإنجليزية تعويضًا، فخلصت فارس وقتئذ من التدخل الأجنبى.

شخوصه إلى أوروبا

مكث جمال الدين بالبصرة ريثما عادت إليه صحته، ثم شخص إلى لندن، فتلقاه الإنجليز بالإكرام، ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية والعلمية، وحمل على الشاه وسياسته حملات صادقة فى مجلة سماها (ضيـاء الخافقـين)، ودعا الأمـة الفارسية إلى خلعه، وقويت دعوة الحرية فى إيران، واشتد السخط على الشاه ناصر الدين إلى أن قتل سنة ١٨٩٦ بيد فارسى أهوج، وقيل إن للسيد دخلا فى التحريض على قتله، وتولى بعده مظفر الدين، واستمرت دعوة الحريـة التى غرسها جمال الدين فى إيران تنمو وتترعرع حتى آلت إلى إعلان الدستـور الفارسى سنة ١٩٠٦.

ذهابه إلى الآستانة وإقامته بها

وفيما هو بلندن ورد عليه كتاب من المابين الهمايونى[١] بواسطة رستم باشا سفير تركيا بدعوته إلى الآستانة، فاعتذر أولا، ثم ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته فلبى الطلب، وذهب إلى الآستانة سنة ١٨٩٢.

وكانت هذه هى المرة الثانية لوروده هذه المدينة، والمرة الأولى كانت فى عهد السلطان عبد العزيز كما تقدم بيانه.

وقد يبدو غريبًا أن السلطان عبد الحميد الذى كان نصيرًا للاستبداد وخصما للحرية، يدعو إلى جواره أكبر زعيم للحرية فى الشرق، وأغلب الظن أنه أراد أن يخدم سياسته فى الجامعة الإسلامية باستضافته فيلسوف الإسلام، لكى يظهر للعالم الإسلامى انه يرعى العلم والعلماء من الأمم الإسلامية كافة، ومن ناحية أخرى فإن تركيا كانت هدفًا للمطامع الاستعمارية وكانت تحاربها. فبديهى أن

(١) السراى السلطانية.

رائد التحرر من الإستعمار يرحب بزيارة الآستانة لعله يتخذ منها قاعدة لمحاربة الاستعمار، ولو أن تركيا قرنت هذه الدعوة بإقامة دعائم الشورى فى بلادها وإصلاح ما فسد من شئون الحكم واعترفت للعرب بحقوقهم ووقفت حيالهم موقفًا كريمًا، لتغير مركزها ولصارت أكثر صمودًا للحملات الاستعمارية الأوروبية.

وقد لبى جمال الدين دعوة السلطان، آملا أن يرشده إلى إصلاح الدولة العثمانية، لأن مقصده السياسى هو إنهاض دولة إسلامية أيًّا كانت إلى مصاف الدولة العزيزة القوية، فسار إلى الآستانة لتحقيق هذا المقصد، وحفه عبد الحميد بالرعاية والإكرام، وأنزله منزلاً كريمًا فى قصر بحى (نشان طاش)، من أفخم أحياء الآستانة، وأجرى عليه راتبًا وافرًا، قيل إنه خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر.

ومضت مدة وجمال الدين له عند السلطان منزلة عالية، ثم ما لبث أن تنكر له، وأساء به الظن، إذ كان من أخص صفات عبد الحميد إساءة الظن بالناس كافة، وخاصة بمن يتصلون به، والإستماع إلى الوشايات والدسائس، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى نال الحظوة الكبرى عند مولاه يكره أن يظفر أحد بثقته، فوشى بالسيد عند السلطان وأوغر عليه صدره فأحيط السيد بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته ويرقبون حركاته وسكناته.

وقيل إن من أسباب استماع عبد الحميد لوشايات الواشين أن السيد جمال الدين التقى مرة بالخديو عباس حلمى الثانى خديو مصر إذ كان يرغب عباس فى مقابلته لما كان يسمعه وهو على الأريكة الخديوية عن فضل الفيلسوف الأفغانى، فلما طلب مقابلته كان جوابه: إنه لابد لذلك من اذن السلطان. فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المابين، فكانوا يرجئون ويسوفون فى الجواب، وبينما كان جمال الدين جالسًا فى المتنزه المعروف (بالكاغدخانة) بالآستانة فى أصيل أحد الأيام جاء الخديو عباس حلمى وحياه وجلس وإياه يتحدث إليه، فطار الجواسيس إلى السلطان بالخبر، فأرسل يستدعيه إليه ولما لقيه قال: أتريد أن تجعلها عباسية؟ يشير إلى الخلافة. فقال جمال الدين:

« إن بنى العباس قد انقرضوا. وبنو على أولى ». ولم يكن يعتقد أن السلطان يقصد عباس حلمى فى حديثه.

فبمثل هذه الأوهام كان الجواسيس يوسوسون للسلطان ويوغرون صدره على جمال الدين.

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان فى هذا الصدد فى كتاب «حاضر العالم الإسلامى»[١] أن السيد كان وعبد الله نديم الكاتب والخطيب المصرى المشهور فى متنزه (الكاغدخانة)، فصادفا الخديو عباس حلمى وسلم بعضهم على بعض وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك، فقيل إن الشيخ أبا الهدى قدم تقريرًا للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديو على الاجتماع فى (الكاغدخانة)، وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة، ويقول الأمير شكيب: إن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية[٢]، ولكنا نميل إلى الاعتقاد أنها تركت أثرًا فى نفسه، وغيرت قلبه على السيد.

وذكر أن الذى أدى إلى وحشة السلطان منه استمراره فى مجالسه على القدح فى شاه العجم ناصر الدين، مما حمل سفير إيران عليا الشكوى منه إلى السلطان، فاستدعاه، وطلب إليه الكف عن مهاجمة الشاه، فقبل، وكان فى يده حين قابل السلطان سبحة. فجمعها فى كفه وقال بصوت جهورى: «امتثالاً لإشارة أمير المؤمنين فإنى من الآن قد عفوت عن الشاه ناصر الدين». فدهش عبد الحميد من هذا الجواب وقال له « يحق يخاف منك الشاه خوفًا عظيمًا ».

وخرج جمال الدين من حضرة السلطان إلى حجرة رئيس الأمناء فقال له بلطف « يا حضرة السيد إن إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل. واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة فى حضرته».

فقال جمال الدين « سبحان الله إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة، وليس من يعترض منهم، أفلا يكون لجمال الدين حق فى أن يلعب بسبحته

---

(١) تأليف المستر ستودارد الأمريكى وتعريب الأستاذ عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات قيمة للأمير شكيب أرسلان.

(٢) حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٠٣.

كيف يشاء؟» فترك رئيس الأمناء حجرته مهرولاً خائفًا من كلام جمال الدين.

وكان يخاطب السلطان بشجاعة لا يستطيع غيره أن يقلده فيها، ولم يدخر وسعًا فى تحذيره من الخونة من رجاله حتى قال له يومًا: «يا جلالة السلطان مللت من تعاطينا الشكاية، ومن غيرك صاحب الأمر؟ خذ بحزم جدك محمود وأقص الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال فى الولايات، خفف الحجاب عنك واظهر للملأ ظهورًا. يقطع من الخائنين الظهور. وأعتقد أن نعم الحارس الأجل».

وعند ذلك تنفس السلطان الصعداء وقال «ذكرتنى بعهد جدى محمود. وما أبعد الفرق بين محيطى ومحيطه، من حالة أوروبا فى زمانه وحالتها اليوم، بين رعيته والرعية اليوم».

ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦ فاشتدت الريبة فى جمال الدين، واتجهت إليه شبهة التحريض على قتله، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه، ومنع أى أحد من الاختلاط به إلا بارادة سلطانية، فأصبح السيد محبوسًا فى قصره.

مرضه ووفاته

تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية، فإن اتهامه بالتحريض على قتل الشاه، وتغير السلطان عبد الحميد عليه، وحبسه فى قصره، ووشايات أبى الهدى الصيادى»، مما يقرب إلى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة، هذا إلى أن الغدر والاغتيال كانا من الأمور المألوفة فى الآستانة.

وأصدق الروايات وأحقها بالثقة فيما نعتقد، ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى)، قال ما خلاصته: «إنه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل مستشار السفارة الإنجليزية يطلب منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الآستانة، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك، فلما بلغ السلطان

الخبر أرسل إليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته إلى هذا الحد، ولا يلتمس حماية أجنبية، فثارت فى نفسه الحمية والأنفة، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر، ومهما كان فليكن، ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى فمه مرض السرطان، فصدرت الإرادة السلطانية بإجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبور زاده إسكندر باشا كبير جراحى القصر السلطانى، فأجرى له العملية الجراحية، فلم تنجح، وما لبث إلا أيامًا قلائل حتى فاضت روحه، ومن هنا تقول الناس فى قصة هذا السرطان، وهذه العملية الجراحية لقرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد، وما كان معروفًا من وساوس عبد الحميد، فقيل إن العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا، بحيث انتهت بموت المريض[١].

وذكر الأمير شكيب أن المستشرق المعروف الكونت (لاون استرووروج) حدثه أن المترجم كان صديقه، فدعاه إليه بعد إجراء العملية الجراحية، وقال له إن السلطان أبى أن يتولى العملية إلا جراحه الخاص، وأنه هو رأى حال المريض ازدادت شدة بعد العملية، ورجا منه أن يرسل إليه جراحًا فرنسويا مستقل الفكر، طاهر الذمة، لينظر فيعقب العملية، فأرسل إليه الدكتور (لاردى)، فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وأن المريض قد أشفى بسبب ذلك، وعاد إلى استرووروج، وأنبأه بهذا الأمر المحزن، ولم تمض أيام حتى فارق جمال الدين الحياة.

وذكر واحد ممن كانوا فى خدمة عبد الحميد، بعد أن روى له الأمير شكيب هذه القصة، أن قمبور زاده إسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الجريمة، وحقيقة الواقعة أنه كان بالآستانة طبيب أسنان عراقى اسمه (جارح)، يتردد كثيرًا على جمال الدين، ويعالج أسنانه، وكانت نظارة الضابطة (إدارة الأمن العام) قد استمالت (جارح) هذا بالمال، وجعلته جاسوسًا على

---

(١) حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٠٤.

السيد، وصار له عدوًّا فى ثياب صديق، وقال صاحب هذه الرواية إنه أراد مرة أن يمنع الطبيب المذكور من الاختلاط بجمال الدين، فأشار إليه ناظر الضابطة إشارة خفية، بأن يتركه، وفهم من الإشارة أنه يذهب إلى السيد، ويعالج أسنانه، بعلم من النظارة، والسيد لا يعلم بشىء من ذلك، ويطمئن إلى (جارح) ويثق به، ولم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل، وأجريت له عملية جراحية، فلم تنجح، وجارح هذا ملازم للمريض، وبعد موته كانوا يرونه دائمًا حزينًا كئيبًا، يبدو على وجهه الوجوم والخزى، مما جعلهم يشتبهون أن يكون له يد فى إفساد الجرح بعد العملية، أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل، ولما مات السيد بدأ الندم على الطبيب الأثيم وشعر بوخز الضمير يؤنبه على خيانته هذا الرجل العظيم.

وكانت وفاته صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧، وما إن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقيًا عنده، وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال فى مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش، فدفن كما يدفن أقل الناس شأنًا فى تركيا، وظل قبره هناك إلى نقل رفاته إلى أفغانستان سنة ١٩٤٤.

الفصل السابع

صفاته وأخلاقه وشخصيته

صفاته وأخلاقه

وصفه تلميذه الأكبر الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله: «إنه يمثل لناظره عربيًّا محضًا، من أهالى الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين، من سكنة الحجاز، ربعة فى طوله، وسط فى بنيته، قمحى فى لونه، عصبى دموى فى مزاجه، عظيم الرأس، فى اعتدال، عريض الجبهة، فى تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل فى النظر، هش بش عند اللقاء، قد وفاه الله من كمال خلقه، ما ينطبق على كمال خلقه، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته، وله حلم عظيم، يسع ماشاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه. فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب، إذا هو أسد وثاب، وهو كريم، يبذل مابيده، قوى الاعتماد على الله لايبالى ما تأتى به صروف الدهر، عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسى، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه، وكثيرًا ما كان التعجل علة الحرمان، وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد عن الغرور بزخارفها، ولو بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع، مقدام، لا يهاب الموت، كأنه لا يعرفه، إلا أنه حديد المزاج، وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة، إلا أنه صار اليوم فى رسوخ الأطواد وثبات الأفناد، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ، ولا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزًّا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر، وبالجملة ففضله كعلمه، والكمال لله وحده».

وقال أيضا: «بقى علينا أن نذكر وصفا لو سكتنا عنه سئلنا عن إغفاله. وهو أنه كان فى مصر يتوسع فى إتيان بعض المباحات، كالجاموس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار، وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية، فكان بعيدًا عن اللغو منزهًا عن اللهو، وكان يوانيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم، وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه، لكن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يخرج بعض همه بما أباح الله له، هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الأفغانى أتينا به دفعًا لما افتراه عليه الجاهلون، ولو سلكنا فى تاريخه مسلك التفضيل لأدى بنا إلى التطويل».

وذكر عنه الأمير شكيب أرسلان أنه كان يعظم نفسه عن الشهوات، ولا يرى من اللذات إلا اللذات العقلية العالية، وأن السلطان عبد الحميد حاول أن يعلق قلبه بالمال والبنين، ويشغله بزينة الدنيا، وراوده على الزواج، فأبى وأعرض، وكان ينظر إلى المال نظرة إلى التراب، فلا يدخره، ولا يتناول منه إلا ما هو ضرورى للحياة، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلا، فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب، وكذلك رفض قبول أى وسام مهما كان عاليًا.

وقال عنه (أديب إسحق) وكان من تلاميذه «عرفت صاحب الترجمة بمصر، وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الإقامة بالمحروسة (القاهرة) والإسكندرية. أنه أسمر اللون، ربعة ممتلىء، قوى البنية، جذاب النظر، نافذ اللحظ، خفيف العارضين، مسترسل الشعر، بجبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة، عزب، عفيف النفس، قانت. كثير القيام، لا ينام إلا الغلس إلى الضحى، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين، قوى العارضة طويل الحجة، واسع المحفوظ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك استار الستائر، ولكنه على فضله، لا يسلم من حدة المزاج»

علو نفسه

ويلوح لنا أن أبرز صفة فى جمال الدين علو النفس، ولعلها الصفة الجامعة التى تصدر عنها صفاته الأخرى واخلاقه؛ وقد احتفظ بها فى أشد الأوقات حرجًا، ولازمته عند اشتداد المحن، وتعاظم الخطوب، مما دل على أنها غريزة طبعت عليها نفسه العالية، وحسبك دليلًا على ذلك ما كان من موقفه حين نفى من مصر فى أوائل عهد الخديوى توفيق، فقد أنزل إلى البحر فى السويس خالى الجيب، فجاءه قنصل إيران فى ذلك الثغر، وكان معه جماعة من الماسونية، ومعه نفر من تجار العجم، وقدموا إليه مقدارًا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن، فأبى أن يأخذ منه شيئًا، وقال لهم «احفظوا المال فأنتم إليه أحوج، إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب».

وهذه الكلمة وحدها تصور لنا شخصية جمال الدين وعظمته النفسية، وتصلح أن تكون عنوانا لتاريخه المجيد.

عقيدته

قال الأستاذ الإمام عن مذهبه وعقيدته «أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى، وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدًا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام إقامته بها، ولا يأتى من الأعمال إلا ما يحل فى مذهب إمامه، فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه، أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله».

الرد على الدهريين

تدل رسالته فى (الرد على الدهريين) على أنه مؤمن صادق الإيمان، يدعم العقيدة الإسلامية على أسس المنطق والحكمة العقلية، فهو فيلسوف من فلاسفة الإسلام الأعلام.

وسبب وضعه لهذه الرسالة أنه كان فى الهند طائفة تعتنق مذهب الدهريين وتسمى (التنشرية) وهى كلمة إنجليزية نسبة إلى Nature ومعناها الطبيعة، وقد ترددت هذه الكلمة حين إقامة جمال الدين فى حيدر أباد، وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر أباد عن حقيقة هذا المذهب فى كتاب قال فيه «يقرع سمعنا فى هذه الأيام صوت «نيتشر» ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيتشرى)، فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم وفى أى وقت ظهروا؟ فكان جواب جمال الدين تأليف رسالته (الرد على الدهريين).

وقد وضع الرسالة باللغة الفارسية التى كانت شائعة بين المسلمين من الطبقة المثقفة بالهند، ونقلها الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى اللغة العربية أيام كان منفيًا ببيروت عقب إخماد الثورة العرابية، ويفهم من مقدمة الأستاذ الإمام لترجمة الرسالة أن حكومة الهند الإنجليزية كانت تمد للدهريين فى حبل الغواية لتزلزل عقائد الأمة فى الدين وتضعف من مقاومتها للاستعمار البريطانى، وتلك سياستها فى مختلف البلدان، قال الأستاذ الإمام فى مقدمة الترجمة «نحمد الله على الهداية، ونعوذ به من الغواية، ونصلى ونسلم على خاتم رسله، وآله وصحبه هداة سبله، وبعد فقد أتيح لى الاطلاع على رسالة فارسية فى نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل، محيط المعرفة الشامل الشيخ جمال الدين الحسينى الأفغانى، أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر، مالا يحتاج معه إلى الوصف، وأما الرسالة فعلى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين، وتأييد عقائد المؤمنين، مالم يجمعه مطول فى طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله، دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان فى

البلاد الهندية، عندما رأى حكومة الهند الإنجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد، إغراء لهم بنبذ الأديان، وحل عقود الإيمان، وإن كثيرًا من العامة فتنوا بآرائهم، وخدعوا عن عقائدهم، وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ماتدعيه تلك الجماعة الضالة، وممن سأله فى ذلك حضرة الفاضل مولاى محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر أباد الدكن من بلاد الهند، فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه، وقد حدانى علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة عنه إلى الاجتهاد فى نقلها من لغتها إلى اللغة العربية، فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأفغانى تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة إن شاء الله»[١].

وأهم ما فى الرسالة إثبات قيمة الدين وضرورته للإنسان وأثره فى رقيه وتقدمه، وأثر الالحاد فى انحطاطه.

وهى تفنيد لمذهب الدهريين. وبيان مفاسدهم. وإثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر فساد للعمران.

وخلاصة رأى السيد أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال. كل منها ركن لوجود الأمم، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية، وأساس محكم لمدينتها، وفى كل منها حافز يحث الشعوب على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر. ويزعها عن مقارفة الفساد.

العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات، والثانية يقين كل ذى دين أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل، والثالثة يقينه بأن الانسان إنما ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات، جديرة بأن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام، إلى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات، لا تنقضى سعادتها، ولاتنتهى مدتها، وبين أثر هذه العقائد فى وعى الإنسان.

(١) ص ٢ من رسالة الرد على الدهريين.

أما الخصال الثلاث فهى: الحياء. والأمانة. والصدق.

وأوضح جمال الدين أن هذه الأسس التى أتت بها الأديان هى علة العمران، وعليها تتوقف سعادة الإنسان، وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدى تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس، فتنزل الإنسان منزلة الحيوان، وتفقده الباعث على الخير، وتعده لحياة جامدة ضيقة لا قلب لها، ولا سمو فيها، وفى هذا انتكاس لخلقه، وهدم لكيانه، وحرمان مما أعده الله له.

وقال عن تأثير الإيمان بالله: ولم يبق للشهوة قامع، ولا للأهواء رادع إلا الأمر الرابع أعنى الإيمان بأن للعالم صانعًا عالمًا بمضمرات القلوب، ومطويات الأنفس، سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحق فى حياة بعد هذه الحياة، وفى الحق ان هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان مادة التدليس، وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق والتدقيق عند الحد، وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة، وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئة للاجتماع الإنسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة، ولا يستقيم نظام المعاملات، ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل، وسدت عليها طرق الفضائل، ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وعذر وتملق ونفاق، وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هى نفسه وكما سبق، فإن لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه، فما الذى يمنعه عن ذمائم الفعال، خصوصًا إذا تمكن من إخفاء عمله وأمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة، وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والمرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها، ولئن وجد فى أحد الجاحدين شىء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصًا لفقد ما عده من سائر صفات الكمال.

وبين أن فى الإسلام قواعد محكمة تميزه على سائر الأديان.

أولها: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان يتوحد فى خلق الأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد - علويًا كان أو سفليًا - يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر أو إعطاء أو منع، أو إعزاز أو إذلال.. أو نحو ذلك من خرافات، كل واحدة منها كافية فى أعماء العقول وطمس أنوارها.

وثانيها: أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها، واثبت لكل نفس الحق فى السمو، ومحق امتياز الأجناس، وتفاضل الأصناف، وقوم الناس بالكمال العقلى والنفسى، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة، لا بأى شىء آخر، وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

وثالثها: أن الإسلام يكاد يكون منفردًا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، فهو كلما خاطب خاطب العقل، وكلما احتكم احتكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.

ورابعها: ان الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم، وفرض نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر، فقال: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ وقال ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

وعلى هذه الأركان الأربعة بنى الإسلام، وكل ركن منها له الأثر البالغ فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام، وتدعيم السعادة الإنسانية، وقد دارت حالة المسلمين رقيًا وانحطاطًا على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها.

علمه

قال الأستاذ الإمام عن علمه: «أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له، وله قوة فى حل ما يعضل منها، كأنه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها، كل موضع يلقى إليه، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه، فيأتى على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر المستور منه، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع، وله لمس فى الجدل، وحذق فى صناعة الحجة، لا يلحقه فيها أحد، إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهدًا على ذلك أنه ما خاصم أحدًا إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون، وبالجملة فإنى لو قلت إن ما آتاه الله من قوة الذهن، وسعة العقل، ونفوذ البصيرة، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنت غير مبالغ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

وقال أديب إسحق عن ذكائه: «ومن عجائب ذكائه أنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها، ويحفظ من مفرداتها شيئًا كثيرًا، فى أقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ إلا من علمه حروف هجائها فى يومين، وكان يتتبع حركة المعارف الأوروبية والمكتشفات العصرية، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدًا حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوروبا العالية».

وكان يعرف من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدًا. واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية. وخاصة الفلسفة. كثير المطالعة. لم يفته كتاب ألف فى تاريخ الأمم وآدابها وفلسفتها إلا طالعه.

مجلسه

كان حين إقامته بمصر يلقى الدروس فى داره، فكـانت محط رجال العلماء والأدباء وأذكياء الطلبة، يقضى النهار فى بيته، فإذا جن الليل خرج يتوكأ على عصاه إلى قهوة اعتاد أن يجلس فيها أمام حديقة الأزبكية (قهوة متاتيا)، ويأخذ مكانه فى الصدر، وحوله تلاميذه ومريـدوه، وفيهم الشاعـر، والأديب، والعالم اللغوى، والطبيب والجغرافى، والتاريخى، والمهنـدس، وغيرهم من صفـوة أهل الفكر والعلم، والوجاهة، فيفيض على محدثيه من بحر علمه.

يقول الأستاذ الإمام: «كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريده وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسده على ذلك؛ لأنها تؤثر فى حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى بالكلام إلا إذا رأيت له محلًا قابلًا واستعدادًا طاهرًا».

وقال سليم عنحورى عن محدثيه: «إنهم يتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه، وبسط أعوص الأحاجى لديه، فيحل عقد إشكالها فردًا فـردًا، ويفتح إغـلاق طلاسمهـا ورموزهـا واحدًا واحـدًا، بلسان عـربى مبـين، لا يتلعثم، ولا يتردد، يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال، فيدهش السامعين، ويفحم السائلين، ويبكم المعترضين، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبًا، فيقفل إلى داره، بعد أن ينقد صاحب المقهى كلما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك المجمع الأنيق».

اتساع أفقه السياسى والاجتماعى

كان واسع العلم فى المسائل السياسية والاجتماعية، يتحدث عنها فيبـدى الرأى السديد الدال على الحكمة العالية، والمواهب الخلاقة، والتفكير العميق، والتجارب البعيدة الغور.

تأثير الفتح العربى فى الأمم

قال عن تأثير الفتح العربى فى الأمم وسبب انتشار اللغة العربية فيها: «بيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه، وأنه أفعل الوسائل بعد القهر، لحكمهم، ولترك الأثر بينهم، يكفى النظر فى ظهور الإسلام وفتوحاته، حربًا كان أم صلحًا، وانتشاره فى أقل من عصر فى أعظم المعمور من الأرض، فقد عم جزيرة العرب، فالشام، فمصر، فالعراقين، فالهند، فأقصى الشرق، حتى (الآستانة)، وها هو قبر خالد أبى أيوب الأنصارى فيها، و «جامع العرب» فى «محلة غلطة» من أكبر الشواهد.

«نعم إن زحف العرب ووفودهم على البلاد إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا، وإلا فأداء الجزية للدخول مع القوم فى حقيقة المساواة، وللقيام فى حفظ كيان المجموع، وكان من يقبل الإسلام لا إكراه عليه فى قبول العادات وتعلم اللسان، كذلك من أدى الجزية فلا إكراه عليه فى دينه، وباقى مميزاته، بل يبقى على مألوفه، ومؤثرات إقليمه، وخواصه، ولا خطر على قلب فاتح إسلامى أن يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل.

«إن كل من دان بالإسلام، أو رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر، وارتياح عظيم للتعرب، والسبب فى ذلك، أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر، مثل الأنفة من الكذب، والوفاء بالعهد، ومطلق العدل، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والرعية، وإغاثة الملهوف، والكرم، والشجاعة وباقى الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة.

«وأمر طبيعى ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من يتخلق بها، لأن الإنسان إنما ينفعل بروحه وشعوره – والانتخاب الطبيعى فطرى فى الحيوان، وأشده ظهورًا ووضوحًا فى الإنسان، لذلك انعطفت قلوب الأمم، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم، سواء البلاد التى فتحت عنوة، ووضعت

فيها الحرب أوزارها، أو صلحًا. وأول مقدمات العادة الاستحسان، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكه.

«والاعجاب بآداب قوم، باعث على حب التقرب منهم، وأعظم وسائل التقرب – التفاهم – فيتبارون فى تعلم اللسان، هكذا تم للغرب ورسخ لهم فى معظم ما فتحوه من الأمصار والبلدان والممالك، آثار أدبية فضلًا عن الآثار العمرانية، من لسان وعادة، وأخلاق لم يمكن استئصالها، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة، فمصر بينما هى هرقلية رومانية، و (المقوقس) عامل له فيها، أصبحت فى قليل من الزمن إسلامية فى الأغلبية، عربية بالصورة المطلقة، فى كافة مميزات العرب، وهكذا القول فى سورية والعراق، وغيرهما بدون أن يبذل فى سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى، أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا.

«نعم إن أكبر حامل، وأفعل عامل، على تعريب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية، والصفات العالية، التى كانت تأتى بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم».

كان واجبا على الترك أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية

جاء جمال الدين بالآستانة أديب تركى، وأطلعه على مذكرات مخطوطة للمؤرخ التركى ضيا باشا، يعترف فيها بأن الترك لم يخلفوا فى البلاد التى فتحوها آثار حضارة وعمران، مثلما ترك العرب من آثار مادية وأدبية لا يقوى الدهر على ملاشاتها، ويقول: إن المسلم والمسيحى واليهودى فى مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية فيقول إنه (عربى) ثم يذكر ديانته، وأن آثار العرب المادية فى الأندلس لا تقل عن آثارهم فى باقى الأمصار. وأغرب من ذلك أن التركى والجركسى والأرناؤوطى وغيرهم من العناصر غير العربية يستعرب متى وجد فى بلد عربى ويمتزج بالمجموعة العربية حتى تخال أنه

(عربى قح)، وأما فى حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الإسلامى والسماح التركى ولين الجانب (كذا).

هذا ملخص ما حوته مذكرات ضيا باشا، وقد سأل الأديب التركى السيد جمال الدين عن رأيه فى تعديل هذه الظاهرة فقال ما خلاصته: إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر حين اعتقد أن الأتراك شابهوا العرب تمامًا بمعنى أنهم دخلوا فى دين الإسلام، ولكن فاته أن لكل دين لسانًا، ولسان الإسلام هو (العربية)، ولكل لسان آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها تتكون العصبية، فالأتراك أهملوا أمرًا عظيمًا وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح، وأحب أن يعمل بها السلطان (سليم)، وهى جعل اللسان العربى لسان الدولة العثمانية وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن عوائد أهله.

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم وبشكل الدين الظاهرى فقط، بل بفهم أحكامه، والعمل بآدابه، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان.

ولقد قام السلاطين من آل عثمان بفتوحات جليلة، وقربوا إليهم من كان فى عصرهم من فحول العلماء من المسلمين وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربى، وبعض علومه، وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربى، وغالوا فى التقدير حتى أنهم كانوا (على ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ قاموس (الفيروز أبادى) العربى، وبقى الترك فى فتوحاتهم على هذه الصورة، وفى مجموعهم به بداوة صرفة، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة، ولم ينقلوا سواها للبلاد، إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله، ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان العربى، والعرب لو كانوا مثلهم لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرًا منهم، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية، ولبقوا على بداوتهم، همهم فتح البلاد للاستغلال، وجمع الأموال للرفاه والترف، أو للبذخ والسرف.

إلى أن قال: أما انتشار اللسان العربى فى غير بلاد العرب، فليس للفاتحين

أدنى دخل فيه، ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل، بل إن ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة، والحكم والأمثال والمواعظ، هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل، حتى أن العرب قبل الإسلام وهم فى تلك الحالة الجاهلية، والبداوة المحضة، وبعدهم عن كل حضارة، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنوشروان، محلاً رفيعًا، ويأخذون الجوائز، ويشرون بتجارتهم مع الأعاجم بآداب لسانهم، وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التى تأخذ بمجامع القلوب، هكذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد، يناسبه سلاسة اللسان وأدبه، فكان إذ ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل (الحرث بن كلدة) مثلاً، استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته، وكذلك الشاعر فى قبيلته إذا نبغ أجلته القبيلة، واعتبرته حامى ذمارها بأدبه وشعره، وأغنته بالمال والماشية، وأما فى الحضارة الإسلامية، وفى دولها، فكثير ممن برع فى الأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة.

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى. وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الروابط التى تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر، فكم رأينا من دول اغتصب الغير ملكها، فحافظت على لسانها حكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دحر فردت ملكها، وجمعت إليها من ينطق بلسانها، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان، قبل كل ما سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلوا فى الاستعباد إلى ما شاء الله.

وقال فى موضع آخر «لننظر فى فتوحات الدولة العثمانية للممالك الإسلامية، من مصر والشام، فحلب، فبغداد، فتونس وسائر الممالك العربية، فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب، وكان لجامعة الدين التأثير العظيم فى قبول الحكم العثمانى، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعملت من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم، باتخاذ اللسان العربى - وهو لسان الدين - لسانًا رسميًا وسعت بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك، لكانت فى أمنع قوة، وآمن حصن من الانتقاض، والخروج على سلطانهم، ولكنها فعلت العكس، إذ فكرت فى تتريك العرب وما أسفهها سياسة، وأسقمه من رأى، لأن

تدين الأتراك بالدين الإسلامى على جهل باللسان العربى، جعل فى القلوب منزلة - ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين، فما قولك لو تعرب، وانتفى من بين الأمتين، النعرة القومية - وزال داعى النفور والانقسام «بالتركى وبالعربى» - وصاروا أمة عربية - بكل ما فى اللسان من معنى، وفى الدين الإسلامى من عدل، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفى مكارمهم من عادات، لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورًا - وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل، همام مثل الفاتح، أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم غير عسير، ولكن مع الأسف كان عدم قبول فكرة السلطان الفاتح، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى - خطأ بينًا - لا يضارعه إلا توغل العثمانيين فى أوروبا، وشبه جزيرة البلقان، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة».

ماهية الجزية

قال جمال الدين فى تفسيرها: إن أهل الكتاب خيرهم الإسلام بين أحد أمرين: إما الاشتراك بأداء الجزية وفيه صلاح الأمر الدنيوى للكافة، والمقصد الأعلى من هذا صون النفوس وعدم سفك الدماء بقليل من مال يؤخذ ينصرف فى المنافع والمصالح المشتركة، وفى تعزيز قوة المجموع، وكذلك يدخل به مع القوم فى ساحة مساواة حقيقية، له مالهم وعليه ما عليهم، ولا إكراه عليه فى دينه بل يكون مصانًا فى شعائره وأصول عباداته وعاداته من كل أذى.

وإما أن يختار الإسلام فيشارك القوم فى العاجل من دنياهم، وسلطانهم، وفى كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم، والغرض الاسمى فى الحالتين كما ترى هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الإلهى من الهدم، بل يتجسم فيه طلب الهداية لعبادة إله واحد، وتأسيس العدالة، وتوزيع الحق.

لذلك ترى أن كل مصر أو قطر دان بالإسلام، أو دخل فى حوزته خيم فوق ربوعه السلام، ورتع أهله فى بحبوحة من العدل المطلق، وساد فيه الأمن والأمان

وحصلت المساواة على أصح وجوهها باعتراف كل منصف غربى مثل سبنسر أو كارلايل وغيرهما، ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق، وهذا كله لا يشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التى يشب ضرامها لتوسيع نطاق البلاد بالإلحاق، أو بالاستعمار، والنتيجة استبعاد الأمم تحت تلك الصور.

انكاره على من يقول بسد باب الاجتهاد

عرف جمال الدين بنفوره من التقليد والجمود، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال، ويرد الضعيف منها، ويجتهد فى الاستنباط، ويتناول الأقرب للصواب وما يقبله العقل.

ذكروا يومًا فى مجلسه قولاً للقاضى عياض فى ذلك، واتخذوه حجة واشتد تمسكهم بذلك القول.. حتى أنزلوه منزلة الوحى، فقال جمال الدين: «يا سبحان الله. إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناوله فهمه، وناسب زمانه، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة، وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال الناس؟ إنهم هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم، لقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا، وقالوا، وأدلوا دلوهم فى الدلاء، فى ذلك البحر من العلم وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان».

ولما قيل له إن ذلك يعد اجتهادًا، وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه.

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال: «ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد؟ وأى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين، أو أن يهتدى بهدى القرآن، وصحيح الحديث، أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منها، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجيات الزمان وأحكامه، لا ينافى جوهر النص.

إن الله بعث محمدًا رسولاً بلسان قومه (العربى) ليفهم ما يريد إفهامهم،

وليفهموا منه ما يقوله لهم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾. وقال ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾. وفى مكان آخر ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيًا لعلكم تعقلون﴾. فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم ولكى يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منه، فمن كان عالمًا باللسان العربى، وعاقلاً، وعارفًا بسيرة السلف، وما كان من طرق الإجماع، وما كان من الأحكام مطبقًا على النص مباشرة، أو على وجه القياس، وصحيح الحديث، جاز له النظر فى أحكام القرآن وتمعنها، والتدقيق فيها، واستنباط الأحكام منها، ومن صحيح الحديث والقياس، ولا أرتاب فى أنه لو فسح أجل أبى حنيفة، ومالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجدين، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكمًا من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهمًا وتدقيقا.

«نعم إن أولئك الفحول من الأمة، ورجال الأمة، اجتهدوا وأحسنوا (جزاهم الله عن الأمة خيرًا)، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر، وتحقيقهم واجتهادهم، إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم، والحديث الصحيح من السنن والتوضيح، إلا قطرة من بحر، أو ثانية من دهر و «الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده». وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون»[1].

الإسلام والاشتراكية

قيل لجمال الدين: إن خير ما فى أوروبا من النهضة هو السوسياليزم Socialisme (الاشتراكية) وهى التى ستؤدى حقًا مهضومًا لأكثرية الشعب العامل، فما رأيكم وهل من تعارض بينها وبين الإسلام؟.

فقال جمال الدين ما خلاصته: إن ما تراه من الاشتراكية فى الغرب،

---

(١) راجع (خاطرات جمال الدين الأفغانى) لمحمد المخزومى وكتاب (جمال الدين الأفغانى. تاريخه ورسالته) وكتاب (صيحة جمال الدين الأفغانى التى بعثت الشرق من سباته وبصرته بحقوقه وواجباته) لمحمود أبو رية.

وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب، فى شكله الحاضر، وأسسه، وتخبط واضعى مبادئه - كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع.

«الاشتراكية الغربية» ما أحدثها، وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام، وعوامل الحسد من العمال لأرباب الثراء - الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم، وادخروا كنوزهم فى الخزائن، واستعملوا ثروتهم فى السفه وبذلوها فى السرف، والتبذير، والترف - على مرأى من منتجها، والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض، ومن ترابها و ... و .... الخ، وبالاختصار ثمرات عمل العامل بكل أنواع حاجة العمران.

«فكل عمل يكون مرتكزًا على الإفراط لابد أن تكون نتيجته التفريط.

«أفرط الغربيون (الأغنياء) فى نبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم، فأفرط العمال فى مناهضة أهل الثروة، وغاصبى حقوق الأمة - بالمناصب ومسببات الجاه - فلا قاعدة دينية يرجع إليها، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع، لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية «فوضى» ولسوف ينعكس أمرها.

«أما الاشتراكية فى الإسلام» فهى ممتزجة بالدين الإسلامى، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة، جاهلية.

«فأول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة - وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية هم كذلك من أكابر الصحابة أيضا - وإليك البيان:

«أما أن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم، ومواساتهم لأهل قبيلتهم وعشيرتهم، ولا أعد كثيرا من ذلك بل أجتزئ بمن اشتهر منهم، مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة وكيف أنه نحر مالديه (وهو فرسه) لمجرد مجىء امرأة من أقصى قبيلة طيئ إذ قالت له: يا حاتم قيل لنا إن عندك لحمًا ذبيحًا فأتيت بصبيتى.

فقال «صدقت»، ثم نحر فرسه، وأشعل ناره (تلك العلامة التى كانت كدعوة للمجموع يعلمون أن هناك طعامًا ما) فيأتون لمكان الدخان فى النهار، ولشعلة النار ليلًا، ويشتركون جميعهم فى المأكل دون أدنى منة لصاحبها، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور، والثرى كل على نسبته وما لديه من سعة، وقد تواتر الخبر بأن حاتمًا لم يذق من ذلك اللحم شيئًا مع كونه قرما، سغبا[1].

«هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة فى الأفراد ولكن حسن استعمالها، وجعل نصيب للآخرين فيما يجعل الاشتراكية أمرًا مقبولًا، وصفة ممدوحة – إذ لا أنانية، ولا أثرة، ولا استطالة على الفقير – بينما موجد ومسبب ومهيئ تلك النعم كلها – هو ذلك العامل الفقير. الذى يسكن كوخًا صغيرًا.

«هذا ما عليه اليوم أهل الثروة فى الغرب، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية – وفى نفيرهم روح الانتقام، والإفراط فى المطالبة بحقهم يقابله التفريط فى زجرهم، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ولسوف يتفاقم الخطب، وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب، ولا يسلم منها الشرق.

«أما الاشتراكية فى الإسلام، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكنًا الأخذ بها لأن القرآن أشار إليها بأدلة كثيرة، منها أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فيعلم أن للخلق ربًا واحدًا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء، ويرى، ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب، والغزاة، ومن يتولى إمرتهم، وقيادتهم، فخاطبهم آمرًا، ومعلمًا، ومدافعًا، ومبينًا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد، وتلك المساعى نصيب إذ قال ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير﴾.

(١) القرم: الشديد الرغبة فى اللحم. والسغب: الجائع.

هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدًا، ومخاطرًا بحياته أن يكون مشتركًا معه فى نتيجة غزواته وغنائمه، من لم يكن مشتركًا فعلًا - فأعطى أولا «الله تعالى» نصيبا ومرجع ذلك النصيب لعباده - ثانيا «للرسول» ثالثا «لذوى القربى» وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد، والسعى وراء الغنائم، لعلل تختلف أشكالها، وأنواعها، ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبا من مساعى أولئك الأشداء، الأقوياء المجاهدين، الخائضين غمرات الموت. كل ذلك نراه مبنيًا على حكمة الاشتراك، ولبث حكم هذه الآية جاريا، وكان الرضا به شاملًا لمجموع المسلمين، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم، وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية، ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء، فقال «واليتامى»، ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال «والمساكين»، ثم رأى أن يأخذ نطاقًا أوسع فقال «وابن السبيل»، أى عابره، فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلًا، ولا أنفع، ثم جاء فى موضع آخر من الكتاب مقرعا لمن يكنزون الذهب والفضة، ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة.

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات من القرآن تترى.

ثم قال: «لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ، له طرفان رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر فى محيط واحد، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت - مما لا يتم به نظام الاجتماع - وكان النبى ﷺ «بالمؤمنين رحيمًا» فجاءه عن طريق الوحى وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية، وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها - فوضع للدين أركانًا خمسة، ومن تلك الأركان «فرض الزكاة» فى المال، والركاز والأنعام.. الخ. ثم أضاف إليها كما سبق «غنائم الحروب»، فأخذ منها قسطًا بمقدار الخمس - ثم بعد ذلك حرص على بذل «الصدقات».

* * *

هذا ما قاله جمال الدين الأفغانى عن الاشتراكية الإسلامية، فالإسلام جعل

الزكاة من أركانه ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾.

فالزكاة هى الاشتراكية الإسلامية، وهى عماد العدالة الاجتماعية والفارق بينها وبين الاشتراكية الغربية أنها فى الغرب قد تطورت وتطرفت، وتولدت عنها الأحقاد والضغائن بين طبقات الشعب، وجعلت الأمن والنظام فى حاجة إلى حاكم بأمره يضع حدًّا لوقف الحرب بين الطبقات، أو يغلب طائفة المعدمين على طائفة الطبقة الموسرة والمتوسطة اليسار، فى حين أن اشتراكية الإسلام أساسها التعاون والتعاطف والتراحم وتجنيب البلاد ويلات حرب الطبقات.

والزكاة واجبة فى الأموال النقدية وفى عروض التجارة بنسبة (ربع العشر) ٢,٥٪ وتقدر بنحو ذلك فى غيرها، وهى ليست إحسانًا، بل هى فرض يلتزم به المواطنون بشروطه، وتشرف الدولة على تحصيله كشأن الضرائب العامة، وهو نظام اجتماعى سديد يبقى على الملكية الفردية وعلى النشاط الاقتصادى الفردى، ويتدخل فى توزيع العدالة الاجتماعية بين الطبقات وتتولى الدولة صرف حصيلته على ما يحقق مصالح المواطنين جميعًا.

جواز الفائدة اليسيرة فى القروض

قال جمال الدين الأفغانى: إن الإسلام حرض على بذل الصدقات وحرم الربا بنكتة غاية فى الحكمة، وهى أن لا يؤكل الربا أضعافًا مضاعفة، وهو ما وقع عليه التحريم، ولكى يكون للإمام مخرج إذا اقتضت المصلحة التسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال، ويصير أضعافًا مضاعفة، وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين الذين يتظاهرون بتجنب الربا ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم يتجرون عند بيعها مع المشترى المضطر بثلاثمائة درهم، وحقيقة هذا الفرق ما هو إلا نصيب الربا وعينه، وإنما يجعلونه عن طريق البيع، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين، وإليك بعض

ما جاء فى هذا الشأن من القرآن: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى، فله ما سلف وأمره إلى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يمحق الله الربا ويربى الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ وقال ﴿يـٰأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

ورأى الحكيم الأفغانى فى هذا الصدد قريب من رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى أفتى بأن أرباح صندوق التوفير بمصلحة البريد لا حرمة فيها وهى لا تتعارض مع تعاليم الدين فى شىء.

سخطه على الاستعمار
ودعوته إلى مقاومته والتحرر منه

قال جمال الدين يصف الاستعمار وأسبابه ومعناه وأهدافه والوسائل لمقاومته والتحرر منه:

«لقد برز الأوروبيون فى ضروب السياسة لتوسيع ممالكهم، وتفننوا فى إيجاد الوسائل المؤدية لذلك وكان أسبقهم فى الدهاء وأكثرهم فى الاستيلاء (الإنكليزى)، وهم فى مقدمة من رأى من دول الغرب - أن فتح البلاد، وتملكها بالجيوش، والكفاح والقتال من مزعجات الأمور وأن الدخول من باب المكر، واللين، والخديعة والختل، أوفر، وأسهل، وأقرب وأفعل، فاعتمدت هذا الأخير سلاحًا، ونالت به نجاحًا، وتركت الأول وهو (الحرب والقتال) وفتح البلاد غلبًا وقهرًا، ورجعت للثانى، وألبسته من الأسماء طيلسانًا لين الملمس، هين الملبس ودعته (بالاستعمار) ودعت ما يؤخذ من الممالك (مستعمرات)، وجرت فى هذا المضمار فكانت (المجلى)[1] وحازت قصب السبق وتبعها غيرها من الدول فكانوا (السكيت)[2].

(١) المجلى: الفرس السابق فى الميدان. (٢) السكيت: أحط مراتبها جريا.

إن هذا الاستعمار لغة، واصطلاحًا، مصدرًا، واشتقاقًا. لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد وهو أقرب إلى «الخراب» و «التخريب» وإلى «الاسترقاق»، والاستعباد منه إلى العمار، والعمران.

لا تسير دول الاستعمار إلا إلى البلاد الغنية فى ثروتها ومعادنها، وخصب تربتها ومن كان أهلها فى الدرك الأسفل من الجهل، قد خيم عليهم الخمول، لا يبدون حراكًا، ولا يقربون عراكًا.

«وإذا صادفت دول الاستعمار (على طريق الشذوذ) فى بعض الممالك أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير، فما هى إلا مناوشة صغيرة مع تلك المعدات الحربية الحديثة – وقد سقط الملك، أو الأمير أسيرًا، فسيق مع أهل بيته ذليلاً، وحجر عليه فى أضيق البلدان، وأبعدها عن العمران، وتدخل المملكة أو الجزيرة أو المقاطعة وتنتظم فى سلك المستعمرات فيصبح أعزة البلاد أذلاء، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد، وكم الأفواه – وينتصب الميزان، ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين، أو يشخص ببصره، أو يلتفت إلى ورائه، ليس لأحد من خيرات بلاده شيء، وكل الضرائب، والضربات، والشر والويلات، لأهل البلاد وعليهم، لا يشاركهم فى ذلك أحد.

«هذا إذا كان الدخول للبلاد «بلعبة حربية» – وأما إذا دخلوها من باب الانتصار للأمير، أو تثبيت الملك، أو قمع الثورة، وكانوا فى لباس الأصدقاء، الأمناء، المخلصين أو المحبين للشعب ورقيه، وتعليمه دروس الحكم الذاتى، ليستغنى عنهم ويحكم بلاده بذاته !! – فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة، وبعض التقاليد التافهة مأمونة، يشكلون للأحكام، وإدارة مهام البلاد هياكل من الناس، ويتركون معهم أمير البلاد قبة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط، وليس له من الأمر إلا اتباع الأمر لا غير ومختصر القول – إن الاستعمار بمعناه الصحيح، ومبناه الصريح هو تسلط دول، وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء ولا يخرج عامل الغلب، والقهر عما ذكرناه فيما سبق وهو أن القوة والعلم يحكمان ويتحكمان فى الضعف والجهل، سنة ثابتة، وقانون متبع فى الكون.

«ولما كان لحياة الأمم والدول – أدوار، وآجال ولحدوثها وتكوينها، وتعاليها ثم

توقفها وانحطاطها أسباب وعوامل هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس الكونية بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم.

«وانقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التى مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم.

«نعم متى ضعف ما كان سببًا فى الصعود – يحصل الهبوط – والانحطاط – ومتى زال ما كان سببًا فى السقوط يحصل الصعود دور للحاكم والمحكوم، وقاعدة هى بحكم اللازم والملزوم.

«يحصل للضعيف من صدمة القوى «دهشة ورجفة». ويحدث من آثار العلم على الجاهل «خشية» فيقف بين هاتين القوتين منذهلًا، حائرًا، ذليلًا، صاغرًا كما هو الحال مع أهل الاستعمار، والمستعمرين، إذ يمر الدور الأول بين تجبر وتكبر، وعسف، وجور، وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة، وأذهلتهم الصدمة – فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع، فيصادرون فى معنوياتهم، من حرية شخصية، وعزة نفسية، وحرمة ملية، أو جامعة قومية، ثم يأتى دور القضاء على مادياتهم – فيحرمون من خيرات بلادهم، ومن كسب تجارتهم، واستثمار مناجمهم، وبالإجمال الحرمان المطلق من كل خير، وإنزال كل شر وضير فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم مالا تطيق، فعند الوصول إلى هذا الحد من إرهاف الحد تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه «الاختلاج» فإذا التقوا أفرادا أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر فيهزون رءوسهم هزًا خفيفًا، ويفركون أيديهم فركًا غير منتظم، ويحكون رقابهم، هذه هى أول مظاهر الثورة ثم تجول الأفكار، وبعده يبدأ الهمس، ثم الهذرمة، ثم وثم إلى أن يعلو الصوت، ويرتفع السوط، ويحكم السيف ويأتى من بعده حكم العادل وهو سبحانه ولى المظلومين.

«ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشىء من العدل، ولم ترهقهم ظلمًا، وتسومهم جورًا وعسفًا – للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الإنكليز لمستعمرة «أميركا» وبينها وبينهم من جامعات اللسان، والدين، والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف، ويحمل على الإقلال من العنف.

«ولكن هيهات!! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ وكلنا يعلم ما عاناه الأميركانيون من جور الحكومة الإنكليزية، وتفننها بأنواع المظالم، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب، وآخر ضريبة، أو ضربة نبهت الأميركانيين ودفعتهم لطرح نير إنكلترا بقوة السلاح، ونهوض الأمة «ضريبة ورقة التمغة» وأن صكوك البيع وكافة العقود والعهود إذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها.. وناهيك بما فى هذا الحكم من الجور وضياع أملاك وحقوق - نعم لجأ الأميركانيون فى بدء أمرهم إلى ما يلجأ إليه الضعيف، إذ بعثوا بالشكوى إلى عاصمة الإنكليز ومجلس أشرافهم - عقب أن عقدوا جمعية عمومية فى مدينة نيويورك، وعقب أن أوسعوا «مأمور بيع ورق التمغة» ضربًا واتفقت كلمة الجميع على الرفض، وهذا أول طلائع القوة التى لا يرضخ الإنكليز لقوة سواها، وهو اجتماع كلمة «الأمة».

خدرت أعصاب الأميركانيين بأبطال ورقة التمغة، وفى الوقت ذاته أحدثت ما يمكنها من سلب مال الولايات المتحدة، فوضعت رسم الكمرك على ما يدخل إليها من الشاى. وهذا الرسم أكثر سلبًا للمال من التمغة - وعمدت فى التنفيذ إلى استعمال القهر والقوة، ولما كانت روح الحياة فى الأميركانيين قد دبت وجازت وتخطت دور «الاختلاج» و «والهمس» ووصلت إلى دور ارتفاع الصوت، وسل السيف - فرمت بالشاى الوارد إلى البحر ووقفت للقوة الإنكليزية بقوة الأمة الأميركانية. وألقت مقاليد أمورها وإدارة حروبها الوطنية إلى بطل حريتهم واستقلالهم «الجنرال واشنطون» العظيم.

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

«قل لى لو ثابر الأميركانيون دهرًا على بث الشكوى من ولاة الانكليز إلى مجلس وزراء الإنكليز، واستنفدوا المداد، وسودوا ما فى الأرض من قرطاس تظلمًا واستغاثة، هل كان يفيدهم فى استقلالهم شيئًا، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريطانيين؟ لا والذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف.

«فقوة كل أمة كامنة فى أفرادها، لا يظهرها إلا الاتحاد، ولا يخفيها إلا التفرق. فمن رام من الأمم استعادة مجدها، والتخلص ممن أذلها، فليس غير

طريق «الاتحاد» ما يوصل إلى الغاية وينقذ من البلاء ولا غير حب الموت ما ينجى من الموت، وينيل المرء إحدى الراحتين، فإما أن يعيش بحريته واستقلاله سعيدًا. وإما أن يموت دونها (بطلًا شهيدًا).

«أرونى مملكة، أو أمة انغمس ملوكها، وامراؤها فى السفه، والسرف وعم الجهل طبقات الشعب، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل والهوان، ولم يستعبدها الاستعمار، ويحل فيها الدمار!!.

«وهاتوا، مملكة أو قارة – اتفقت كلمة أهلها، وانفت من الذل، ورفضت الاستعباد واستلت السيف، وطاب لها الحتف ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتدارًا.

«هل من حاجة للإتيان بالأدلة، وضرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول – وظفرت بحاجتها، ونالت حريتها واستقلالها؟

من هم اليونان سكنة ولاية المورة؟ قبل أقل من عصر عندما ناهضت الدولة العثمانية، تلك الدولة التى كانت تحكم ستين مليونًا من النفوس إذ ذاك – واليونان إلى اليوم لم يتجاوزوا فى متفرق المعمورة مليونين.

«كم عدد المصريين؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبًا؟!

«ماهو الجبل الأسود؟ – ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة «بك أوغلو» فى الآستانة – وما هى قوته، وجيشه، بالنسبة لقوة، وجيش الدولة العثمانية!، وهكذا القول فى بلغاريا، ورومانيا.

«فبعد هذه الأدلة المحسوسة، والأمثلة الملموسة – لايصح أن يبقى أدنى ريب، أن المستعمرات لأى دولة مهما تعاظمت قوة، واقتدارًا كالثوب العارى لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة، والطرق الموصوفة.

وهل يشك المصريون وهم يزيدون عن العشرة ملايين[١] وكلهم أحفاد الغزاة،

---

(١) هذا كان عدد سكان القطر المصرى يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٣م (خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى).

الفاتحين من أعز قبائل العرب وإخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين تدل آثارهم على عظم هممهم إنهم إذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال، والحرية وإعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد فحسب، بلى إنهم سينهضون إن شاء الله، ويعملون متحدين، معتصمين بحبل الله، وينالون مايتمنون بحول الله، والله على كل شيء قدير».

طريق الغرب إلى استعمار الشرق

قال فى هذا الصدد ما خلاصته «ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها إما حفظ حقوق السلطان، أو إخماد فتنة قامت على الأمير، أو إنقاذ نصوص الفرمانات، أو غير ذلك من البهتان، والختل، والخداع، وواهى الحجج.

«فإذا لم تكف تلك الأضاليل، تذرعت إما بحجة حماية الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم، أو حرية الشعب، أو تعليمه أصول الاستقلال، أو إعطاء الشعب حقه تدريجيًا فى الحكم الذاتى، أو إغناء الشعب الفقير بالإشراف على موارد ثروته، فالشعب الخامل يرتاح إلى تلك المواعيد ويرضخ للحجر الغربى.

ولأجل أن يصل الغربى إلى الاستيلاء على بلد ما، يضع خطته وهى:

أولا: إقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية.

ثانيا: تقريب الأسقط همة، والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق.

ثالثا: الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعًا».

ومن يتأمل فى أقوال جمال الدين الأفغانى يجد ولا ريب أنها صادرة عن إيمان عميق بالحرية والاستقلال. عقيدة راسخة فى بغض الاستعمار والثورة عليه، ودعوة صادقة إلى الشعوب الشرقية أن تنهض وتتحرر من ربقة الاستعباد والاستعمار.

رأيه فى السلف والخلف

وقال عن السلف والخلف: «الكون يشهد، والآثار تدل، ولا من يفكر أن للعرب، وغيرهم من العجم - آثارًا ومفاخر أتت من وراء الهمم، وصدق العزائم معه ولكنها يا للأسف وقفت فى أجداث الأجداد، وجاورت عظام أولئك العظام - أعلام المروءة، عصبة الرحمة، أولياء الشفقة، أهل النجدة، أسود الحمية، وغوث المضيم يوم الشدة، شوامخ القوة، رواسى العدل - تلك بعض صفات السلف - عثر عليها الخلف بالنبش وهو فى جبانة «الجبن» و«الخمول» - وقرأها فى سطور كتاب حادثات الدهر، وأوراق سجل رجال العالم - فطفق يفخر، ويعدد، ويصول، ويطول، ويقول: نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق، وانقضت شهبها على المغرب، فذلت لهم رقاب القياصرة، والأكاسرة، وخضعت لأمرهم الأمم، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض فطهروها من جراثيم الظلم والجور وملأوها بالرحمة والعدل -وهكذا لاتزال تسمع كلا من العربى، والفارسى وغيرهما من الشرقيين - يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد، ونحن سلالة وذرية أولئك الأقيال الأمجاد، ونحن ونحن مما يثير الأشجان، ويزيد الأحزان.

«نعم أولئك آباؤنا، وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا ولكن وا سوأتاه. وا معرتاه، وا خجلتاه!: - إذا هم سألونا عما فعلنا بخلفاتهم، وما ورثوه لنا، واستخلفانا عليه من الممالك، والأقطار وعظيم المدن، والأمصار.

«نعم أين أنتم أيها الأجداد، الأمجاد، القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة؟! ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم؟!.

انحرفوا عن سنتكم - وحادوا عن طريقكم - فضلوا عن سبيلكم - استبدلوا كل فضيلة برذيلة، وأتوا على كل أمر لله بعكسه، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين، وتفرقوا فرقا، وأشياعًا - الملوك منهم أنزلوا عن

عروشهم[١] وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعزة باتوا أذلة، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء وأصحاء أصبحوا سقامًا، وأسود تحولت نعامًا، فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفًا، وتحترق الأكباد حزنا، أصبحوا فريسة للأمم الغربية لا يستطيعون ذودًا عن حوضهم، ولا دفاعًا عن حوذتهم.

ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدى الضال إلى سواء السبيل! «إنا لله وإنا إليه راجعون». «نعم - إن للأرواح إشراقا بهياكلها الروحانية - على ماتلبس من الأجسام الترابية فى هذه الدار الفانية، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد «إذ الإمداد لا يكون إلا على قدر الاستعداد» - فإذا أصغينا بالحس الروحى إلى ما تريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا لوجدناهم يحرقون علينا الأرم ويزعجهم الألم وينادوننا: أيها الأحفاد! تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق - نعم - وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة فى أغمادها - فهلا تقلدتموها؟ وهلا سللتموها فى وجه من اكتسح بلادكم، وضرب عليكم الذلة والمسكنة.

تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك، وما تحملناه فى سبيل ذلك من المخاطر والمهالك - ولا تخجلون، ولا تحزنون وقد سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم، وذلكم تنظرون - ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى ولا تنطقون.

«تفتخرون بصبرنا، وثباتنا، وأقدامنا، وبسالتنا، واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم ﷺ وأنتم على عكس الأمر من أخلاق وصفات، وما أبعدكم بهذا عن الفخر - وأبعد الفخر عنكم - ولأنتم أولى بإطراق الرأس - وغض الطرف خجلًا، وحياء من الله، ومن أرواحنا فى الملأ الأعلى - التى تبرأ إلى الله من صنعكم وقلة إيمانكم بالله، والعمل بما جاء به رسول الله.

«تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين، وحسن اليقين - والتزام الكتاب والسنة

---

(١) ممن قاوموا الاستعمار وحاربوه وكانت له الغلبة عليهم.

والعمل بأحكامها – وأنه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة فكنا كالبنيان المرصوص – نعم هكذا كنا – أما أنتم فلم يبق من جامعة بينكم إلا العقيدة الدينية «وليس فى الجميع» مجردة عما يتبعها من الأعمال.

انقطع التعارف بينكم، وهجر بعضكم بعضًا هجرًا غير جميل – علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد، وهداية الناس إليها – لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم – فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى – وهكذا – بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم، ولا صلة إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة، أو قرابة بين أحدهم والآخر – أما فى هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم – بل لا أنساب بينكم وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها – كأنه جزء مفصول، أو عضو مبتور.

«تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا «التعقل» والتروى وانطلاق الفكر من الأوهام، والعفة، والسخاء، والقناعة، والدماثة، ولين الجانب، والوقار والتواضع، وعظم الهمة، والصبر، والحلم، والشجاعة، والإيثار، والنجدة، والسماحة، والصدق، والوفاء، والأمانة، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو، والمروءة والحمية، وحب العدالة، والشفقة، نعم من الله بها علينا وهكذا كنا – وأنتم أيها الأحفاد! ماذا غلب على أكثركم غير السفه، والقحة، والبذاءة، والبله، والطيش، والتهور، والجبن، والدناءة والجزع، والحقد، والحسد، والكبرياء، والعجب، واللجاج، والسخرية، والغدر، والخيانة، والكذب، والنفاق، والشح. أفبهذه الأخلاق تحبون أن تتغلبوا، وتعجبون كيف تسلب أملاككم، وتذلون؟ أم بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيرا – شيمًا وأخلاقًا؟!.

«هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا – وما أطبق[1] أقوالهم هذه على الحق، وما أقربها من الصواب، والواقع، أى بينة لنا على أننا خلف ذلك السلف – وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم، وحافظنا على فضائلهم،

(١) هكذا الأصل والصواب: أن يقال «وما أشد انطباق – أو مطابقة – أقوالهم».

واقتفينا أثرهم ولم نحد عن سيرهم، وسيرتهم – نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا، وأن يستبد بملكنا غيرنا – أم بقينا نحن الوارثين؟.

«إن «دعوى» حق الأحفاد فى ميراث الأجداد – هى فى محكمة الكون والبينة التى يصدر من بعدها الحكم – هى إثبات التحلى بفضائل السلف، والتخلق بأخلاقهم، والنسج على منوالهم، والتزام ما لزموه من السنن، وجروا عليه بالقول والعمل – فعسى أن نوفق للإدلاء بتلك الحجة – فتستقيم لنا الحجة – إذ كفانا من الذل ما لاقينا، ومن البلاء ما عانينا».

وصفه للإنجليزى والعربى (فى عصره)

قال عن الإنجليزى: إنه قليل الذكاء عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع، عنيد، صبور متكبر.

وقال عن العربى أو الشرقى: إنه كثير الذكاء. عديم الثبات. قنوع. جزوع. قليل الصبر. متواضع.

يثبت الإنجليزى حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره.
والشرقى لا يثبت على الصواب. ولا على طلب حقه.
فيفوز الأول بخير النتائج بفضيلة الثبات.
ويخسر الثانى حقه برذيلة التلون وعدم الصبر.

رأيه فى الأحزاب السياسية فى الشرق

وقال عن الأحزاب السياسية فى الشرق:

«الأحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء، نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية، لطلب الحرية والاستقلال، وكل العالم لنا أصدقاء، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء.

«والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية، يقوم الحزب السياسى، بعنصر ضعيف، أو بأفراد قلائل بينهم اللسن، والمحنك، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد، ويسرون خدمة أنفسهم، فتتألف على أهل الحزب القلوب، وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة، وداعى الحاجة، ويستحسن عملهم الغريب، ويهوسهم الدخيل، شأن الحوادث المستجدة، فى انقلاب الأمم من طور إلى طور، فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة، ورفاهة، وحرية، واستقلالا، ومساواة، على أوسع شكل، قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل، فضلاً عن القريب العاجل.

«فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة، والانقياد، والنصرة، والتضحية... الخ.

«فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة، واستحكم له الأمر - ظهرت هنالك فى رؤساء الأحزاب، الأثرة والأنانية، ومد حب الذات عنقه، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد، وتحصل فى النتيجة النفرة العامة.

«فتضطر عندئذ لترك الحزب، وينفرط بالطبيعة عقده، والكل له أعداء».

وضرب عدة أمثلة، منها ما حصل فى الأفغان وغيرها وما حصل فى حزب عرابى فى مصر.

ثم قال: «لا ينبغى أن يؤخذ من قولى هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى، فإن الشرق بعد أن أخنى عليه الدهر بكلكله، ومرت عليه زلازل العنف والجور، وأشكال الاستعباد - إن هذا الشرق، وهذا الشرقى - لا يلبث طويلاً حتى يهب يومًا من رقاده، ويمزق ما تقنع، وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ فى إعداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها، المستنكرة لاستعبادها.

«على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى، لا مانع يمنع الشرقى من الانخراط فى الحزب بعد الحزب، وأن يقبل من المواعيد، ما يصدق

وما لا يصدق، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من أفراد يرون الموت فى حياة وطنهم مغنماً، والحياة فى موت وطنهم مغرماً.

«حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة، ويصيرهم بنعمة الإخاء، والاتحاد، والتعاون أعزة – بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء، يعملون متضامنين فى صالح مجموعهم، ونصرة مظلومهم – يأخذون ما لهم من حق، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون».

مقصده السياسى

قال الأستاذ الإمام عن مقصده السياسى: «إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها، حتى تلحق بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيفى مجده، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها». انتهى كلام الأستاذ الإمام.

نقول وقد دل تاريخ السيد على أنه بذل حياته كلها لبعث روح النهضة والحرية فى أمم الشرق قاطبة.

فهو أول زعيم للحرية فى الشرق، وأول باعث لنهضته الحديثة، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده، فحسبه أنه غارس البذرة الأولى للحركات القومية التى ظهرت فى الشرق منذ نحو تسعين سنة إلى اليوم، وإلى ما شاء الله، وإذا هو لم يشهد نجاح دعوته قبل موته، فليس مرجع ذلك إليه، لأنه قد أدى رسالته على أتم ما يؤديه الزعماء المخلصون، ولكن عاكسته الأقدار، واعترضت سبيله عقبات جمة، بعضها من مكايد الدول الاستعمارية، وخاصة الدولة الإنكليزية، وبعضها من خذلان ملوك الشرق وأمرائه لدعوته واضطهادهم إياه.

فقد رأيت ما أصابه من الخديو توفيق حين ولى الحكم، إذ نقض عهده معه، ونفاه من مصر، وكذلك فعل معه شاه العجم ناصر الدين شاه، فقد استدعاه

لينتفع من علمه وحكمته، وما لبث أن تنكر له وحبسه ثم نفاه، وعرفت ما أصابه في الآستانة على عهد السلطان عبد الحميد، مما لا حاجة إلى تكراره، وحسبك أن تذكر أنه كان سجينًا فى قصره، ومحاطًا بالعيون والجواسيس، حتى لاقى منيته فى ظروف تدعو للاعتقاد أنه مات شبه مقتول.

فملوك الشرق وأمراؤه كانوا إذن حربًا على جمال الدين، وكانوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون عونًا لدعاة الاستعمار فى إحباط جهوده ومساعيه، فليس عجيبًا أن لا يشهد السيد نجاح دعوته فى الإصلاح والحرية، وقد لقى أيضا خذلانًا من أكثر الطبقات، فكأنه كان يرسل دعوته فى صحراء مقفرة، ليس فيها سميع ولا مجيب.

ولا مراء فى أنه قد تقدم الشرق وسبقه إلى الحياة نيفًا ومائة عام، فلم يلب الشرق نداءه فى حياته، ولم تظهر ثمار دعوته إلا بعد مماته، وهذا يزيده فضلاً وقدرًا، رنه قام بدعوته فى وقت عز فيه النصير، وقل المستجيب إلى دعوة الحرية والحق.

وقد شعر السيد، وخاصة فى أواخر أيامه، بمرارة اليأس والألم مما لقيه من صنوف الاضطهاد، ونقض العهود والمواثيق، وكم كان حقيقًا بالألم حين يعرض فى ذاكرته مبلغ ما بذله لأمم الشرق من الإخلاص والتفانى فى خدمتها، ثم ما أصابه من كبرائها وأمرائها من التنكر والجحود، وما لقيه من مختلف طبقاتها م الأعراض والخذلان.

ذكر عنه الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته[1]: «أنه لقيه بالآستانة سنة ١٨٩٢، وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الإسلام تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع، فقال له مرة «قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقًا جديدًا، وجيلاً مستأنفًا، فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتلقون تربية تسير بهم فى طريق السلامة».

(١) حاضر العالم الإسلامى جـ١ ص ٢٠٥.

وقال له مرة أخرى «لم يبق فى الإسلام أخلاق، فهذا محمود سامى البارودى الشاعر الكبير، رئيس الوزراء أثناء الحوادث العرابية عاهدنى ثم نكث معى، وهو أفضل من عرفت من المسلمين»[١]. وقال له أيضا «إن المسلمين قد سقطت هممهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شىء واحد فيهم، وهو شهواتهم».

بمثل هذه الخواطر كان يعبر السيد عن ألمه من سوء حالة الأمم الشرقية، وهذا الألم يدلك على مبلغ الشعور الذى تملك لبه، وأنه كان يشتعل غيرة على الشرق والإسلام، ويحزن إذ يرى دعوته لم تلق مجيبًا ولا نصيرًا، وإنك لترى صورة الألم والحزن مرتسمة على محياه فى مرضه الأخير، وظل هذا الحزن يلازمه حتى فارق الحياة.

وبعد أن مضت عشرات السنين على وفاته سنة ١٨٩٧، لم ينهض واحد من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يبحث عن قبره ويشيد له ضريحًا يليق بذكرى الرجل العظيم الذى أفنى عمره فى بعث الأمم الشرقية وإنهاضها، وبث روح الحياة والحرية فيها، إلى أن قيض الله رجلًا من سراة الأمريكان (المستر كراين)، فأخذ يبحث ويحقق حتى اهتدى إلى قبر جمال الدين بالآستانة سنة ١٩٢٦، فأقام عليه شاهدًا فخمًا من الرخام، نقش عليه اسم السيد، وأدى بهذا الصنيع واجبًا كان يجدر بسراة الشرقيين وعظمائهم أن يؤدوه.

وهذا المظهر المستمر من نكران الجميل يكشف لك ناحية من أسباب التأخر السياسى والاجتماعى فى أمم الشرق قاطبة، فإن الأمم لا تسلك سبيل النهضة الصحيحة إلا إذا عرفت أقدار الرجال الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها.

---

(١) الإشارة هنا فيما نعتقد إلى ما كان من نفى السيد جمال الدين من مصر فقد نفى بقرار من مجلس الوزراء وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى ذلك الحين واشترك فى هذا القرار.

بعض كلماته الخالدة

لجمال الدين الأفغانى كلمات خالدة تدل على عظمة شخصيته وإيمانه برسالته وقد مر ذكر بعضها فى خلال الحديث عنه وسنذكر هنا أهمها شأناً[١]

* * *

– لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى، بدايته (الوطن)، ووسطه (الوطن)، وغايته (الوطن).

* * *

– شر أدواء الشرق داء انقسام أهليه، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا.

* * *

– الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل، ومعشر الشرقيين فى الفقر خوف الفقر، وفى الموت خوف الموت.

* * *

– إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك أو المسيطر عن طيب خاطر، وكذلك الاستقلال، بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم بالقوة والاقتدار.

– ينتصر الحق ويخذل الباطل وإن طاوله الكرم وأمهله العفو ومده الغرور.

---

(١) كثير من هذه الكلمات وردت فى (خاطرات جمال الدين الأفغانى) لمحمد المخزومى، وقد أضفنا إليها بعض روائع الكلم التى صدرت عن الحكيم الأفغانى.

– بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان عليهم نهايته.
– الإنجليز باقعة العالم وأحبال الحيل.

* * *

– أعتقد أن السجن فى طلب الحق من الظالمين العتاة رياضة، والنفى فى ذلك السبيل سياحة، والقتل شهادة، وهى أسمى المراتب.

الذل عدو العلم

– الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

العلم والعمل به

– علم قليل مقيد فى الصدور يعمل به، خير من علوم كثيرة مسطورة فى الكتب ولكن لا يعمل بها.

* * *

– أضعف ما فى هذا العصر: حق لضعيف لا قوة له ، وأقوى شىء: باطل لقوى يجعل باطله حقا.

* * *

– لاخير فى حق لا تدعمه قوة.

* * *

– صاحب الحق قوى ولو كان ضعيفا، والمبطل ضعيف ولو كان قويا.

يمين جمال الدين

– كان يمينه إذا شاء أن يقسم به قوله: «وعزة الحق، وسر العدل».

– عظمة الملك لا تكون بالتيجان، ووقار العلم لايكون بالطيلسان.

– «الاكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء».

* * *

– الفقر عدو الفضيلة، والثراء نصير الرذيلة.

– حقيقة الأنفة، وعزة النفس عدم الاتكال على الناس.

* * *

– صاحب القلم لايحتاج إلى عصا.

* * *

– الإفراط فى التواضع دليل على الادعاء.

* * *

– ما مات واحد فى حب أمة إلا وأحبته.

* * *

– لا أمة بدون أخلاق، ولا أخلاق بغير عقيدة، ولا عقيدة بغير فهم.

* * *

– خير موازين الأمم أخلاقها.

* * *

– يقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون.

* * *

– العلم الصحيح كسب صحيح، بل وراثة لنبوة.

* **

– لا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور.

* * *

خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال.

* * *

- من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانية، فقد خسر الأولى والثانية.

* * *

- لا يتم عمل والتآلف مفقود، ولا يكون فشل والاتحاد موجود.

* * *

- من عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحًا لغيره!.

* * *

- أمة تطعن حاكمًا سرًّا، وتعبده جهرًا، لا تستحق الحياة.

* * *

- تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم.

* * *

- حمال الحطب للاتجار به أنفع من حمال الذهب للادخار.

فهرس

صفحة

تقديم الكتاب........................ ٧
مقدمة الطبعة الثانية.............. ٨
مقدمة................................ ٩

الفصل الأول
نشأته والعصر الذى ظهر فيه

بدء حياته العملية.................. ١٢
رحيله إلى الهند..................... ١٤
مجيئه مصر لأول مرة.............. ١٥
العصر الذى ظهر فيه.............. ١٦
سفره إلى الأستانة وأثره فيها ثم رحيله عنها.................. ١٨

الفصل الثانى
عمله فى مصر

مجيئه مصر للمرة الثانية ٢٠
أثره العلمى والأدبى فى مصر...... ٢٢
أثره الأخلاقى والسياسى......... ٢٣
الحالة السياسية والمالية فى مصر كما شهدها جمال الدين الأفغانى ٢٤
قروض مصر فى عهد اسماعيل ٢٦
نظرة عامة فى هذه القروض...... ٢٧
الحالة المالية سنة ١٨٧٠........... ٣٤

صفحة

التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية ٣٧
الرقابة الثنائية البريطانية الفرنسية على شئون مصر المالية ٤١
الوزارة المختلطة.................... ٤١
النهضة الوطنية والسياسية ٤٢
ثورة ضباط الجيش سنة ١٨٧٩ ٤٤
الجمعية الوطنية..................... ٤٥

الفصل الثالث
جمال الدين والثورة العرابية

جمال الدين والخديو توفيق........ ٤٧
نفى جمال الدين من مصر........ ٤٨
جمال الدين أبو الثورة العرابية ٤٩

الفصل الرابع
عمله فى أوروبا

العروة الوثقى ٥١
جمعية العروة الوثقى.............. ٥١
جريدة العروة الوثقى ٥٢
هى رد فعل للاحتلال............. ٥٢
فاتحة العدد الأول ٥٣
منهج الجريدة...................... ٦٠

صفحة
منع العروة الوثقى من دخول مصر والهند........................ ٦٢
تقصد الشرقيين عامة لا المسلمين وحدهم ٦٥

الفصل الخامس
نماذج من مقالات
العروة الوثقى وأخبارها

الاستعمار فى مصر................ ٦٧
انجلترا والمسألة المصرية.......... ٧٢
عبث الإنجليز بالأمن فى مصر.... ٧٥
ماضى الأمة وحاضرها. وعلاج عللها ٧٦
تجريد مصر من قوتها الحربية..... ٨٥
تخاذل الشرقيين. والدعوة إلى الوحدة بينهم................. ٨٦
الجيش المصرى بقيادة الإنجليز والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند..................... ٩٢
سوء الأحوال فى مصر............ ٩٧
رئيس وزراء مصر يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا ٩٩
وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق...................... ١٠٠
الوسائل لحفظ كيان الدولة....... ١٠٥
ولاء الخديو توفيق للاحتلال..... ١١١
سنة الله فى الأمم.................. ١١٥
الوهم........................... ١٢١

صفحة
التنبيه إلى مقاصد الانجليز....... ١٢٤
احتجاب العروة الوثقى.......... ١٢٦
انفصال الحكيمان ١٢٧
جمال الدين ورينان............... ١٢٨

الفصل السادس
فى فارس – وروسيا – وتركيا

فى فارس مرة أخرى.............. ١٣١
دعوة جمال الدين ضد الشاه...... ١٣٢
شخوصه إلى أوروبا............... ١٣٣
ذهابه إلى الآستانة وإقامته بها.... ١٣٣
مرضه ووفاته..................... ١٣٦

الفصل السابع
صفاته وأخلاقه وشخصيته

علو نفسه........................ ١٤١
عقيدته ١٤١
الرد على الدهريين................ ١٤٢
علمه............................. ١٤٦
مجلسه............................ ١٤٧
اتساع أفقه السياسى والاجتماعى ١٤٧
تأثير الفتح العربى فى الأمم....... ١٤٨
كان واجبا على الترك أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ١٤٩
ماهية الجزية....................... ١٥٢
إنكاره على من يقول بسد باب الاجتهاد ١٥٣

صفحة
الإسلام والاشتراكية.............. ١٥٤
جـــواز الفـائـــدة اليسيـــرة فى
القروض ١٥٨
سخطه على الاستعمار، ودعوتـه
إلى مقاومته والتحرر منه...... ١٥٩
طـــريق الغـرب إلى اسـتعمـار
الشرق ١٦٤

صفحة
رأيه فى السلف والخلف............ ١٦٥
وصفه للإنجليزى والعربى........ ١٦٨
رأيـه فى الأحزاب السيـاسية فى
الشرق ١٦٨
مقصده السياسى ١٧٠
بعض كلماته الخالدة.............. ١٧٣

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٥٤٩٢
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3373 – 0	ISBN

١ / ٩٠ / ١١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

م
٢٥٠